خسوف

# هوموفوبيا

الكتاب: هوموفوبيا (خسوف)
المؤلف: نبيل نوري لكّزار موحان
النّاشر: دار الدّراويش للنّشر والتّرجمة- كاوفبويرن - جمهورية ألمانيا الإتحادية
Darawesch Verlag

العدد: ٢٢٥
الطبعة الأولى: يناير ٢٠٢٢
١١١ص؛ ٢١× ١٤ سم.

الكتب والدّراسات التي تصدرها الدّار إنما تعبّر بالضرورة عن آراء ووجهات نظر واجتهادات أصحابها، ولا تمت لرأي الدّار بأي صلة.

تم الإيداع المكتبة العامة في كاوفبويرن ألمانيا : ٢٠٢١

بواسطة MVB

(ISBN) (ردمك) الورقي 978 - 3 - 98529 - 125 - 0
(ISBN) (ردمك) الإلكتروني
لوحة وتصميم الغلاف والإشراف الفنّي: بدر السويطي.
الصفّ الضوئي والإخراج الداخلي: محمود عنتر
فرز الألوان والتنفيذ الطباعي: دار الدراويش للنشر و الترجمة
المدير العام: بدر السّويطي
للتواصل:
الدّراويش للنّشر والتّرجمة @dar-aldarawesh
@DarAldarawesh
daraldarawesh@gmail.com
WWW.DARAWESH.COM
هاتف: 00491627040179، ص.ب: 87600
شارع لاينارو هانغ رقم ٣١- كاوفبويرن - جمهورية ألمانيا الإتحادية .

كافة حقوق النّشر، الطبع والاقتباس محفوظة، عدا حالات المراجعة والتّقديم والبحث والاقتباس العادية ذكرًا للمصدر؛ فإنه يحظر إعادة إصدار، نسخ، تصوير، ترجمة أو اختزان -ورقيًا أو إلكترونيًا- أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها في نطاق استعادة المعلومات -سواء كانت تصويرية، إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التّسجيل الفوتوغرافي أو التّسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة وغيرها-، دونما الحصول على تصريح خطي مسبق من النّاشر والإشارة إلى المصدر.
وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع -دون موافقة كتابية- يعرّض صاحبه للمساءلة القانونية.

# هوموفوبيا


نبيل نوري لكَزار موحان

**Nabil NOURI LAGHZAR MOUHANE**

© الدّراويش للنشر والتّرجمة

AL-DARAWESH FOR PUBLISHING & TRANSLATING

W W W . D A R A W E S H . C O M

جمهورية ألمانيا الإتحادية -كاوفبويرن

Kaufbeuren – Germany

2021

# الإهـداء

إلى الإنسانية...

نبيل

# المقـدمة

سوف تسألون لماذا هذا العنوان وهذا الموضوع، ما الهدف، ماذا يخفي، هل الكاتب مثلي أم هل هو ترويج للمثلية. أسـئلة مشـروعة في بيئة ترسّـخ عقلية المؤامرة، لتولّد نمط تفكير جماعي وفردي في الوقت نفسه.

بـكل تأكيد عندما قـرّرت الرواية التعبير عن نفسـها عن طريقي، فكرت في كل ما سـأعرّض له من انتقادات واتهامـات، ولكن عزيزي القارئ أعدك أنّ الرواية مجرد عمل أدبي إنسـاني صرف، اسـتطعت إكمال مسـودته في أسبوعين، بشـغف كبير، مختبراً طاقة إبداعية تفجّرت في كياني، كعالم مواز للواقع الحقيقي، أغرمت بها بالشـخصيات ومتشوّقاً للأحداث التي اكتشف مجرياتها في أثناء كتابتها.

كنـت في هـذه الرواية مؤلفاً ومدوناً يوثّق كلّ ما يصل إلى مسـامعه، من فضاء خارج العوالم والزمن. لقد كانت تجربة شخصية فريدة استمتعت بفرصة مشاركتها معكم.

قراءة ممتعة.

نبيل نوري لكَزار موحان.

صرخات نعيمة التي انتظرت لحظة إنجاب مولودها طوال الشهور التسعة، مع زوجها حميد، عامل النظافة في شـــركة الوافي، التي أخذت اسم صاحبها شـــعاراً لها، يقضي فيها حميد أيامه بين واجهـــات المحلات في المجمعات التســـويقية والمكاتب، معلقاً، يمسح الواجهات الزجاجية، وفي مهمات تعجز زميلاته من عاملات النظافة على القيام بها.

بحكم الثقافة الســـائدة في المغرب، الطبيب يتـــزوج بالطبيبة والمهندس بالمهندسة والموظف بالموظفة، إلاّ الفاسد فيبحث عن شريفة.

تزوج حميد من نعيمة عاملة النظافة المنزلية ليكوّنَ أسرة ويستطيع ممارسة الحـــب إلى ما لا نهاية، مع فرصة الحصول على شـــيخوخة مضمونة في رفقة أولادهم الذين سوف يتسلّمون مشعل العناية بهم وسط غياب أية تغطية صحية أو تقاعدية تحفظ كرامة شيخوختهما، فربّ العمل همّه مصّ دمائهم إلى آخر قطرة وتسليمهم إلى المجهول.

بعـــد ليال من القبل والعناق، تأكد الزوجان من أنه في مقدورهما الإنجاب كأغلبية الأزواج، وبدأآ في إعـــلان موضوع الحمل للمحيطين، كأنهما صنعا إنجـــازاً، لكن تبقـــى الحقيقة أن لا أحد يهتم بمولودهمـــا القادم، فماذا يميز مولودهمـــا عن مولود الفـــأر، غير أن هذا الأخير لن يضطر لمشـــاركة والديه الغرفة.

صـــراخ الوافد الجديد، الممتزج بضباب مـــن رذاذ العرق المتبخّر والماء الســـاخن مع رائحة الأحشـــاء المختلطة بالدم، بين جدران الغرفة المتهالكة، المنتفخة الطبقـــات (كحلوة الألف) الورقة الفرنســـية، نتاج عقود من تكرار عمليـــة الصبـــغ التي تعاقبت كفصول لا طعم لها، تعطينا حكمة وســـط عبثية

الحيــاة العاقلــة المجنونة، التي شــاءت ألّا يبصر فيهــا المواليد الجدد في أسابيعهم الأُوَل.

. أريد أن أطمئن شــريفة. كان ســؤال نعيمة بعد ســاعات من المخاض، الــذي جعلها تدفع ثمناً لكلّ اللحظات التي فتحت فيها فخديها لنخر حميد الليلي. . ولد، صحيح فصيح، أستحق عليه مكافأة. أجابت القابلة. وهي تقدم المولود لنعيمة.

. الله يبشــرك، شــريفة، كادت روحي تخرج، حميد سيطمئن الآن، وباب المشكلات أقفلته إلى الأبد لأن الرجال مهووسون بالولد.

شبكت ذراعيها حول المولود الجديد، حائكة مهداً بأطرافها، كلوحة لأم منهكة متفانية في إظهار العناية كلّها لفلذة كبدها الأولى، الذي ســيحمل اسم أجداده وشعلة ذكراهم حتى يوصلها بدوره إلى سلالته من صلبه.

ليس كالفتاة فهي تحمل النسل لكنها لا تضمن استمرار الاسم، في مشهد تتكسّر أمامه كلّ ادعاءات المساواة وشعارات لا تفارق اللافتات. أو ربما أن المهم هو النسل وليس الذكرى. فماذا تنتفع الشاة من الاسم بعد سلخها.

عــاد حميد منهكاً من مكان عمله في أحد المجمعات الاقتصادية الكبيرة في قلب الحي الراقي لشــارع انفــا بالدار البيضاء، كان جســده تعباً وقلبه مهموماً بالقادم الذي سيرى النور قريباً، وهو يتمنى أن يبقى في بطن نعيمة مدة قرن إضافية، يســتمتع بركلاته في بطنهــا عوض الاضطراب بصراخ لا يتوقف ومصاريف تثقل كاهله المنحني، بحاجيات لا يكاد يرى نهاية لنفقها المضجر، وسط غياب لأيّة حماية اجتماعية تحميه مع أسرته من تقلبات الزمن المتغبش.

يتوقــف أمام بائــع الخبز، صاحب الفرن العمومــي، لأنَّ نعيمة في أواخر

الحمـــل لم يكن في إمكانهـــا القيام بأعمال البيت التـــي تحتاج إلى مجهود وانحناءات وقطع المسافات.

– سلام عليكم صطوف، أربع خبيزات ساخنات

– إصعد إلى الطابق الأعلى، ريثما أخرج من الفرن.

صعد علـــى أدراج الفرن الملتوية والضيقة، محافظـــاً على توازنه بمداعبة الجدران المُلس بحمم الخشـــب السود. يسلك بعدها ممراً بين الرفوف فلا يلمح أيّ خبز للبيع بالتقســـيط، حتى تنتهي به جولته أمام ضوء لنافذة يفصله عنها ســـتار يسمح بمرور ظلّ شـــخص يعجن في حوض كبير مستعيناً برفس قدميه، فسأله حميد: هل ينضج الخبز قريباً؟

– بعد قليل ـ. يجيبه الخباز من دون تغيير من إيقاعاته.

يجلس حميد على أخشـــاب متكومة قرب الفرن مســـتمتعاً بلحظات من الارتخاء متدفأً بالمكان المدخن وسط فقاعة المكان، خارج الزمن الموحش، بين أحضان لحظة، تشبه ساعات نوم المكتئب الثمينة كدراهم اليوم الأسود. تشتت وســـط لذة التذرع بالانتظار الذي يجمد به ضميره المسؤول؛ تشوش على صفائه خطوات عشـــوائية، لأقدام صغيرة قليلة التهذيب، فيظهر صاحبها محملقاً في كلّ الاتجاهات باحثاً بين الرفوف عن وصلة خبز أمه التي أرسلتها سابقاً للطهو في الفرن، غير عابث بحميد وسط كومة الخشب، إلى أن التقت نظراته مباشـــرة مع حميد، فتغيرت ملامحه بابتســـامة مشـــعة ووجه بشوش، ـ عمي حميد مبارك المولود، قال الصبي، ليجيب حميد ـ إلى أن يزداد ونسميه سعيداً، متهكماً على الطفل الذي أعدّه حميد متطفلاً أزيد من كونه طفلاً.

الطفــل يجيبه: كيف إلى أن يولد؟ والطفل الــذي ولدته أمي نعيمة أليس ولدك؟

– عمَّ تتحدّث يا صاحب الرأس الكبير

– عن إبنك يا عمي حميد، كلّ نساء الحارة عندكم في البيت، بينهم أمي رشيدة، يبدو أنني أول من يخبرك

– إذا كنت مصرّاً على مقلبك سوف أشتكي لوالدك

– أقسم لك..

ما لبث أن أقســم الطفل حتــى تركه حميد وانصــرف لا يعرف لخطواته انضباطاً، كأنّ الزمن توقف إلى أن عادت عقارب الســاعة إلى الدوران، وهو يســتقبل في الممر المؤدي إلى غرفته، حشــداً عظيماً من النســاء تبزغ من وســطهن المولدة، لتتقدم الجمع بابتســامتها المخفية تحت أخاديد شــقت طريقها بين تقاســيم بشــرتها البيضاء الخمرية، ماسكة بيد حميد الذي بادرها بوضع يده فوق يدها المتجعدة التي تشــبه ملمــس عروقها البارزة الأغصان الغضة. وســط رائحة البخور والضــوء الخافت، تبارك له مولوده وتطمئن قلبه المتوجس من الأخبار السيئة.

يتوجه إلى الغرفة بارتباك، تســبقه حملقاته، فتســتقبله نظرات نعيمة التي تنتظره بصبر، لكي يشاركها في فرحتها بإحساس الأمومة التي تحققت بشراكة حميد.

– كيــف حالك هل مرّ كلّ شــيء علــى ما يرام، إنّــه كان الأجدر بك الاتصال بالعمل لكي آتي مبكراً؟

– المخاض جاء مباغتاً، لم أشــأ أزعاجك بعدها لأنه لم تكن هناك حاجة ماسة مع وجود القابلة بجوارنا، مبارك سيدي حميد، ألا تريد رؤيته؟

– بلى! أجـاب حميد وهو يتفحص ابنه فوق فراشـه الصغير متردداً في حملـه بين ذراعيه، خوفاً عليه، يخترقه إحسـاس صانع الحياة مع امتداد له، تحقق خارج جسـده، مبللاً خده بدموع قصيرة المدى لا تكاد تنسكب أبعد من منتصف وجهه اليابس بقسوة الأيام.

سـعادة حميد الممتزجة بنوع من الإحساس بالنجاح، كمن عبر بالمشعل في سباق شاق إلى المتسابق الذي يليه، ضامناً بهذا مستقبلاً للفريق كلّه فوق مضمار الحياة، ذلك الترابط الغريب الذي أسس حوله الوجود وغريزة البقاء. فحياة إنسـان واحد تشبه بناء شـيّد بأموال من مصادر شرعية وأُخَر فاسدة. فبين جيناتنا يسكن أجدادنا الشرفاء والفاسدون، القتلة وصانعو الحياة، كلّهم أكملوا دورهم الأسمى بضمان اسـتمراريتهم من طريق سلالاتهم، كأن حالنا يقول إنه ليس هناك شـيء أبيض أو أسود، ليس هناك شيء مطلق، حكمتنا، صدقنـا، جنوننا... حتى إنّ عداءنا لبني جنسـنا يمكن أن يكون له ماض من الصداقة التي جمعت أجدادنا.

جيناتنا تشكّلنا وبارتباطنا بعضنا ببعض نؤلف مجتمعاتنا والتي تتكتل لتصنع الانسـان المطلق الممتد فوق سطح هذا الكوكب الصغير الذي ينخرط بدوره في سلسلة معقدة من التوازنات تبقي على هذا الكون كائناً.

هكـذا حياتنـا كفقاعات تصعد نحو السـماء وتعظـم تجربتها وحجمها بالانصهار مـع فقاعات أُخَر ليحدث التبادل العجيـب، لأنّ حياة واحدة لا تكفي لاختبار وتعلم كلّ شيء. ولا أن تجعلنا كلّ شيء في آن واحد، إنها سنة التنـوع والاختلاف التي تحكم الكون أجمع، والتي يتوجب احترامها كاحترام القوانين البشرية، فالإنسان مجبر على قبول الاختلاف والتنوع كقبوله لقوانين

الفيزيـــاء التي تحـــدث خراباً إذا ما أصابها خطب. ليس كلّ الكواكب تشـــبه الأرض، ليس كلّ النجوم تشـــبه الشمس، أو كلّ الأقمار كقمرنا، لا يمكن أن نقـــارن أو نلغي الآخر، فالطبيعـــة المتحكمة هي من أوجدت هذا التنوع وهي وحدها من لها الحق في التعديل والحذف والإضافة.

تستيقظ جنبات المدينة العتيقة مع ساعات الصباح الأُوَل بإيقاعات صامتة، تخلّفها حركة ساكنيها المغادرين إلى وجهاتهم المعتادة بين العمال والمتمدرسين من الأطفال والشباب، وسط صمت مهيب تخترقه إيقاعات الأقدام كما لو أنها تشارك في تأبين رهيب لأشخاص متوجهين لعيش يوم جديد بلا روح، يوم يتكرر كالروتين لحياة لا مفرّ منها مخلفين وراءهم ربات بيوت ستتكلف بصرف المخلفات النقدية لأزواجهن الكادحين، في وقت غادرت فيه أُخريات دورهن الموروث، متجاوزات العرف، نحو البحث عن مداخيل إضافية بين أركان البيوت والمكاتب، آخذات من مهنة التنظيف وسيلة في غياب حرفة أو تعليم كان ليدمجهن بصورة أكثر انسانية في مجتمع غلبت عليه الفضاضة والقسوة التي رضعها من أيامه التي تخلو من الرحمة، مخلفة جيلاً معطوباً نفسياً.

نعيمة ببطنها البارز تلتحق بالركب مع ابنها فؤاد إلى حيث المدرسة، محقونة العزيمة بأمنيات لمستقبل تشارك في بنائه مع زوجها على وفق أساس بديل أوجدته ولادة فؤاد وأخته أو الأخ القادم.

مسلك لا يتشاركه معهم حميد الذي يستيقظ مع الفجر بسبب طبيعة العمل الذي يتوجب إكماله قبل استلام الموظفين لمكاتبهم صباحاً.

فؤاد الذي يجرّ يد نعيمة كلّما لمح أحد زملائه

– إنه عادل صديقي في الصف

– انتظر، أمه صديقتي...! عائشة كيف حالك؟

– بخير نعيمة، الخلاص على خير لك حبيبتي

– أمين.. أخبرني فؤاد أنه يدرس مع ابنك

– لم أكن أعرف أنه زميله في الصف

فخاطبت نعيمة عادل: كيف يتصرف فؤاد في القسم؟

إحمـرّت وجنة عادل وهو يجيب، ـ جيد خالتي، جيد ـ عائشـة لم تفوت الفرصة لتسـأل عن حميـد، فأجابتها نعيمة أن عمله مرهـق، وهو في أمس الحاجة لعودتها إلى عمل الخادمات.

لماذا لا يحاول الهجرة إلى أوروبا ـ أفتت عائشة ـ

– إذا كنت تعرفين طريقاً لذلك أخبريني، فنحن نسمع بالعقود التي يتاجر بها، لكننا لا نعرف كيف نحصل عليها، والهجرة السـرية تنطوي على الكثير من المخاطر، وإذا حدث مكروه لحميد سأعاني مع أولادي.

– هناك شـخص يبيع تأشيرات عوض العقود، بثمن معقول جداً، لكن لم نكلمه بعد أنا وزوجي العياشـي، أخبرني أحد المتعاملين معه من عائلة زوجي أنه موثوق وحصّل على تأشيرات سياحية للكثيرين.

– كيف يمكن ذلك؟

– لا أعرف ولا يهمني أن أعرف، المهم أخبري حميد أن يكون مسـتعداً للدفع، لأنني سـأخبر العياشي أن يكلم الوسـيط على زوجك لنتفاوض على سعر معقول.

– سـأتكلم مع حميد في المساء وأرد عليك عاجلاً أختي عائشة، كانت فكرة جيدة أن يخبرني ابني عن طفلك

– لقد دخلوا من دون أن ننتبه

– نعم أتذكر فقط الإحساس بالبرودة التي حلت بدل دفء يده

– لنرجـع، أظن أنك مثلي متحمسـة لهجرة زوجك، لقـد تعبنا من هذه

العيشـــة، ومن هذا الفقر، علينا العمل كالعبيد لساعات مرهقة من دون تغطية صحية أو تقاعد، بين أيدي السماســـرة من شـــركات التوظيف، مقابل أجر لا يؤمـــن لك حتى طعامـــاً لائقاً من دون الحاجة للتكلم عن الســـكن واللباس، أولادنا سيكبرون معنا في غرفة واحدة وحمام مشترك مع الجيران. الاثنان منّا يعملان وأجرة الواحد منا تكفي فقط لإيجار شقة في حي هامشي.

– إتركي ذلك الجمل راقداً حبيبتي

إفترقت النســـوة، وذهبت كلّ واحدة إلى ســـبيله، وعادت عائشـــة المرأة البدينة بمقعدتها الضخمة وشـــكلها الذي يشـــبه المصـــارع الياباني إلى بيتها لتقوم بأشـــغال المنزل التي عدت قصص مشـــاقها لا تعدو كونها أسطورة أمام الســـعرات الزائدة لعائشـــة التي لم تتأثر شـــامخة بكلّ عنفوانها مســـندة إلى عجيزتها السمينة.

دخل العياشـــي في وقت الغداء بشكله المربع، وشـــاربيه الكثيفين لابساً قبعتـــه البدوية التي قاومت التمدّن بكلّ شراســـة، إضافة إلى مهنته في تجارة الخضار في الســـوق العشـــوائية التي تحوّلت من شـــارع صغير لعبور المارة والســـيارات إلى ممر للتســـوق بجنباته المحتلة بأنواع من العربات الخشبية، المعروض بها مختلف الســـلع الاســـتهلاكية، كما يقول المثل "المشكل إذا لم تهتم به، ســـيهتم بـــك"، فتجاهل العالم القروي والتأخـــر في غزوه ليتقدّم حضاريـــاً، ما أدى إلى نتائج وخيمة علـــى التركيبة والطابع الحضاري للمدينة. فاندمج القرويون في أســـلوبهم الخاص، بعيداً عن أيّ تأطير أو قواعد صارمة، لإطلاق العنان لمخيلتهم لتشـــييد البيوت الصفيحية، وبناء المنازل العشوائية التي ستكلّف الكثير لمعالجة تبعاتها الاقتصادية والإجتماعية.

مع جلوس العياشي أمام التلفاز في انتظار اكتمال النصاب، ليجهز الغداء على المائدة الخشـــبية التي توضع وتسحب حسب الحاجة لها مخلفة فضاء من المساحة، لا يعدو كونه متنفساً بصرياً وسط الغرفة التي ضاقت بشاغريها. تستغل عائشة غياب الأطفال، لتخبر العياشي بجديد الصباح، إنزعج العياشي عندمـــا عرف الموضوع، ونعتها بالثرثـــارة، وأضاف أن الأمور تقضى بالكتمان وأنه عليهم الاهتمام بتحســـين ظروفهم ليتميزوا عن باقي سكان الحارة، فهذا زمان أنا وبعدي الطوفان.

أما عائشة فكانت مصرّة على حذاقتها، فلو قبل حميد، سيمكن للعياشي التخفيف من ثمن التأشـــيرة، بالإضافة إذا لم يكن حميد ســـيكون غيره، فلن يكون العياشي المتعامل الأخير مع السمسار كما لم يكن الأول. أما العياشي الذي يجيد لغة الأرقام فقد بدأ يســـتأنس برأيها، فبهذا هو بائع فكرة سيقبض مقابلها في كلّ الأحوال.

فـــي زاوية أخرى كان على نعيمة انتظار المســـاء، لتكلّم حميداً الذي كان مشـــغولاً في عمله المرهق، يهون من ساعاته باســـتراق النظر إلى الموظفات الأنيقات في مكاتبهن، كأنهن مخلوقات من جنس آخر، كان سارحاً بنظراته خلف زجـــاج الواجهات، محملقاً في إحدى الموظفـــات، ينغمس في أحلام يقظته، متخيلاً نفســـه مديـــر المكتب، الآمر الناهي، الـــذي تحلم الكاتبات بالـــزواج منه، بعد دخوله إلى مكتبه، يطلب من الكاتبة الشـــقراء صاحبة البزة الزرقاء والشـــفتين المطليتين باللون الأرجواني أن تدخل إلى المكتب، و بعد أن يطلب منها إغلاق الباب، يدفعها إلى الحائط ويبدأ بتقبيلها وفتح ســـترتها ومداعبة أطرافها ونهديها وتقبيلها في كلّ الاتجاهات، وســـرعان ما يبدأ عضو

حميد في التصلّب حتى يعود إلى رشـــده ليهدئ من وثيرة الخيمة التي صارت تعلو أكثر تحت بنطاله، فشهور الحمل الأخيرة لنعيمة جعلت المضاجعة شبه مستحيلة، فتحول حميد إلى مراهق بمخياله ينكح كلّ من مرّت بجواره.

عودة حميد مســـاء إلى الحفرة. التســـمية الرســـمية التي اعتاد استعمالها ليتجنب اســـتعمال عبارة منزل، حتى لا يكرم غرفته بألقاب لا تستحقها. فؤاد الـــذي لم يعـــر لدخول حميد اهتماماً، فمند توقفـــت نعيمة عن العمل عوض حميـــد عادته بجلب مقتنيات لابنه من الحلوى والمنتوجات اللبنية، بالاكتفاء بجلب وجهه المكمد معه، كســـجين أدخـــل زنزانته، وأجبر على التخلّي عن ابتسامته في مكتب الحفظ.

أما نعيمة فعلى غير عادتها، كسرت الحلقات المتكرّرة بشعرها المصفف فـــي البيت، وتركته متدلياً على صدرها بلونه البني المائل إلى الصفرة، ووجهها الخمري تتوســـطه عيون عسلية، وشـــفتان نحيفتان، كرديفتها التي تشبه قوام الغربيـــات، حظ حميـــد الوحيد من هذه الحياة الجافـــة التي دأب في نخرها من دون توقف، كأنه يأخذ مقابلاً على كلّ الضغوط والمســـؤوليات التي وجد نفسه عالقاً وسطها. كأن الجميع كان متواطئاً عليه عندما شجعوه على الزواج، بحجة الاستقرار وتكوين أسرة، فلا أحد وصف له بصدق ما يعيشه من أعباء، مقابل وجبة جنسية واحدة، وابن لا يهتم إلّا لما تحمله يداه في المساء، كأنّ حميداً خالقه وليس والده.

– سيدي حميد؛ أنتظرتك طويلاً

– خير، منذ ولدتِ هذا الشيء لم تناديني بسيدي حميد

– سيدي وزوجي ومالئ بيتي

– هاتي ما عندك، هل تسبب ابنك في مصيبة ما، بدأت أقلق

– إســمع إلى الآخر- اليوم التقيت بعائشــة البدينة، زوجة العياشــي بائع الخضار، وقد أخبرتني بوســيط يتعامل معه زوجها ســيؤمن له تأشيرة لأوروبا، فطلبت منها أن يتوســطوا لك معهم، فهي فرصة لتحسين وضعيتنا، فنحن في بؤس لن نغادره في المنظور القريب.

– سمعت بقصص كثيرة لمهاجرين حققوا الثروة، وعادوا بسيارات وأموال وأجهزة كهربائية كثيرة وأغراض وأفرشة لا تحصى ولا تعد، فجمع الخردة هناك وبيعها هنا كاف لصناعة الثراء، لكن من أين لنا بالمال وكم المبلغ المطلوب؟ وأنت لمن سأتركك مع الأولاد؟!

– لا تقلق من أجل المال، عندي مقتنياتي الذهبية، ويمكنني دخول حلقة قرض دورية مع صديقاتي وآخذها أنا الأولى إذا لزم الأمر، وأنت بعد أن تستقر ســتجلبنا للعيش معك، فسنوات قليلة من التضحية أهون من معاناتنا في نفق جحيم لا نرى له نهاية.

– حسنٌ، سأزور العياشي، ونرى بعدها مآل الأمور.

حميد الذي بدأ يســري في عروقه موضوع الســاعة، إلى أن ارتفعت مع تمدده فوق الأرض درجة حرارة حماســته، فقد معها القدرة على الاســترخاء، والتركيــز في المواد المعروضة على التلفــاز الثنائي اللون كحياته التي فقدت ألوانها منذ أيام صباه، فهو فقد مثل هذه الحماســة التي يرافقها هذيان أحلام اليقظة، التي تصور له عودته راكباً ســيارة فخمة، محط نظرات أعين ســكان الحــي، تتفحصه وتتردد حولــه دمدمات المارة كلّما مــر من قربهم مختالاً

ومتفاخـــراً باكتمـــال قيمة رجولته فـــي ثقافة لا يعيب الرجـــل فيها غير جيبه. تقاطعه نعيمة وهو يحاول إدخال قدمه في صندالته ـ أين أنت ذاهب؟ ـ

– إلى العياشـــي للتكلّم معه، لأعرف حقيقة الموضوع، فلا نتحول لعبثية ثرثرة النساء.

– ما بهنّ النساء، كأن خيراً كنت مصدره ولم نره

– الخير الذي ســـآتي به هو زوجة ثانية تعينك على أعمال المنزل إذا لم تلزمي الصمت

– أضحكتنـــي، منذ متى تســـميه منـــزلاً، فق من هلوســـاتك يا هذا، لولا ســـذاجتي عندما كنت طفلة لما قبلت زواجاً كهـــذا، فالعيش مع أهلي أكثر راحة بكثير.

– هل أهلك يطعمونك ما أطعمك ليلاً؟

إحمـــرّ وجه نعيمـــة أمام فؤاد الذي لم يفهم بين ســـطور الجملة الأخيرة، منســـحبة من التلاســـن، على أمل أن يعـــود حميد بخبر يبعـــث التفاؤل في تفاصيلهم.

وســـط جلبة حبكت بصراخ أطفال الحارة، والحلقات التجمعية المتكونة من الشـــباب أو النساء أمام أبواب المساكن المشـــتركة، تتخللها استثناءات لتجمعـــات مختلطة، تحكم علـــى توازناتها الموضوعـــات المعروضة للنقاش لتمضيـــة الوقـــت، في غيـــاب بدائل لطبقة فقيـــرة تضطر إلى مغـــادرة غرف عيشـــها المكتظـــة بأفرادها، ملتجئة إلى بديل توفره فضـــاءات الحارة بأزقتها الضيقة والممتدة كأفعوانات بين المســـاكن المشيدة عشوائياً، في حين يلجأ الرجال إلى المقاهي الشـــعبية الرخيصـــة، كامتياز يتمتعون به وحدهم، بحكم

كــون الواحد منهم المعيل والرجل الأول في البيت، وبضعف الموارد التي لن تسمح للجميع بارتيادها أو اللجوء لفضاءات التسلية والمرح أو مزاولة أنشطة وهوايات للترفيه وتنويع الحياة.

طقطقات على الباب المتهرئ الذي يبقى مشــرعاً إلى منتصف الليل، إن إمكانية قفله من قبل الســاكنين من الداخل فقط، فكل من يتأخر إلى ما بعد منتصف الليل سيعرف الجميع بأمره.

يتوقــف حميد مع ارتفاع صوت عائشــة الذي يشــبه صــوت محرك آلة العصير، يجيب حميد: هل السيد العياشي موجود؟

– من يطلبه؟

– حميد زوج نعيمة

– أهلاً بســيدي حميد تفضل بالدخــول، أهلاً بــزوج صديقتي العزيزة، أسعدكم الله بخلاص سعيد من حملها، تفضل، تفضل.

عند دخول حميد، ترفع عائشــة ســتارة تحجب داخل غرفتهم عن الممر المشترك، ليجد العياشي جالساً في آخر نقطة بالغرفة التي تشبه في هندستها حافلة أتوبيس من دون نوافذ.

– مرحبــا بأخي حميد إجلــس من فضلك يقول العياشــي وهو يتفحص حميداً بنظرات مســترقة كما تفعل زوجته، في غياب تام لأبناء العياشي الثلاثة الذين ارتموا في حضن أزقة الحارة، كأم تربي بدل عائشة الأم المطعمة.

حميــد المتحرّق، يدخل في صلب الموضوع، ليقاطعه العياشــي: فعلاً ما قالته زوجتي كان صحيحاً، قد أثنيت عليها عندما عرفت أنها أخبرت زوجتك،

فأنت شخص محبوب على قلبي، وأحب لك الخير كنفسي.

أما عائشـــة، فكانت مغتبطة من ثناء العياشـــي كأنه صـــادق في ما يقول، فالصدق عندها هو آخر ما ينطق به الشخص وليس بمقارنته بما سبقه.

– نعم ســـي العياشي يجب أن نبحث عن مستقبل كريم بعيداً عن هنا قال حميد.

– نعم أخي، هناك في الغرب البشر حقيقيون

– ونحن ماذا نكون؟

نحن بشر أيضاً ولكننا نظلّ مغشوشين، ناقصين، لسنا بشراً ككلّ البشرية، أو كيف تفسر ما نحن عليه؟ يسال حميداً . ساخراً . وهو يغمزه باتجاه عائشة المتبلدة، ويرمي له كلمات في جبن: حتى النســـاء هناك إســـم على مســـمّى وليس مجرد ألقاب كنسائنا اللواتي لا يتميزن عنا سوى بافتقادهن إلى الذقن..

حميد الذي تمنعه محدوديته من مجاراة العياشي بائع الخضار، لم يتمالك نفســـه عن الضحك لكن على خلاف العياشي، كان حميد يضحك من شكل العياشي، بســـبب طبيعة عمل حميد وسط النســـاء المتبلّدات، جعلته يسلم بنقصه عن سائر الرجال على شاكلة العياشي الذين تمكنوا من التحليق بحرية، بالمقارنة بهم فحميد يقوم بعمل بدني لا قيمة له وسط المجتمع.

– أرجوك أخي العياشي أن تتكفل بتأشيرتي مع تأشيرتك، فأنا رجل محدود كما ترى.

تقاطعهما عائشـــة بغرور زوجة الحاكم: كن مطمئناً، العياشي رجل ونصف ويعتمد عليه.

**أجاب العياشـــي: غدا سألتقي السمسار وعند عودتك في المساء، ستجد التفاصيل كاملة، إذهب لأولادك في رعاية الله.**

**– لا تتجاهـــروا بالعيب، تصبحـــون على خير، رحم الله والديكم. أجاب حميـــد وهو يهم بالانصراف مطمئن القلب بخطوه خطوة إلى أمام في تحقيق مراده.**

نَيزَكٌ عَابِرٌ لَا تَحْكُمُنِي أنْظِمَةٌ
أحُجُ إلَى وَحْدَتِي، اشْتَاقُ لِعُزْلَتِي

لَا تَتَزَعْزَعِي نَجْمَتِي..
سَوْفَ أعْوُدُ بَعْدَ أنْ أقْطَعَ حُرِّيَّتِي

لَا أحْتَاجُ مَكْتَبَتةً وكُرّاسَةً
النَّتَارُ أحْرَقُوا كُلَّ مُجَلَّدَاتِي

بِلَا قِيمَةٍ، لَيْسَ لَدَيَّ عُمْلَةٌ
احْتَفِظوا بِي هنيهةً
أطْلِقُونِي إلَى قَدَرِي
سَأَعُودُ في سَنَةٍ وَ لَا أجِدُكُمْ

عِيدُكُمْ مُنَاسَبَةٌ
فَرْحَتِي لَيْسَ لَهَا مَوْعِدٌ

عَادَتِي عَلَى غَيْرِ طَبِيعَتِكُمْ
مَفَاهِيمِي لَيْسَتْ مِنْ بَنَاتِ مِنْطَقَتِكُمْ

دَرْبُ التَّبَّانَةِ مُزْدَحِمٌ
ضَجِيجُ الْخَلِيقَةِ مُزْعِجٌ

أهْرُبْ عَنْ الشَّرّ بَعِيدًا
قَلْبِي بَلْوَرَةٌ،
هَدَفٌ لِكُلِّ سَاحِرَةٍ.

مرّت أربع سنوات على رحيل حميد في رفقة العياشي إلى إيطاليا، مخلفين خلفهم نســاءهم وأطفالهــم، راكضين خلف الحلم الأوروبــي. الأموال التي يحولهــا حميد لنعيمة جعلتها تســتغني عن عمل البيــوت وتتفرغ لتربية فؤاد وأخيه ســمير. مع هدف أوحد للحياة يتحقــق في التحاقهم بحميد ليجتمعوا من جديد كأسرة واحدة.

نعيمة بجمالها صارت صيداً مشروعاً، للبقال، والقصاب، وكلّ من تتعامل معهم من الذين يعرفون قصة غياب زوجها، صاروا يقتنصون لحظة ضعف أمام حاجاتهــا العاطفية كمرأة، محاولين اختراقها بكلماتهم المغلفة بطيبة متصنعة، ليتمكنــوا من الوصــول إلى العمق بين فخديها، الذي لــم تحك جوانبه مدة طويلة. أما نعيمة التي كانت تهدئ من نارها المتقدة ومهبلها المبلل المشتاق إلــى الانزلاقات، ونهديها اللتين لم تعصرا وتعضــا مدة طويلة. فكانت تنتظر هــدوء الليل وظلام الغرفة بعد خلود أولادها إلى النوم، لتبدأ بتمرير يدها على كلّ جوانب جسدها بلمسات لطيفة، وقبضات عاصرة لقمم تفاصيلها الملكية من المؤخرة والنهدين، لتصل إلى فرجها بعد أن ترتفع حرارة جســدها المتقد بالرغبة، متخيلة أصنافاً من الناكحين لها غير حميد الذي لا يلبي كلّ خيالاتها المنحرفة. تتوهّم قضيبــاً أكبر من قضيبه يخترق مهبلها ليصل إلى أبعد نقطة لم يصلها رجل من قبل. لتحرك أصابعها الثلاثة إلى الداخل حتى تخلق ضغطاً يهيج شــهوتها المنحرفة التي تشــعل كلّ جنبات جسدها الفاتن الذي لم ينل منه حمل إبنين بســبب زواجها صغيرة. مع اقترابها من الرعشة وسط حالة من فقدان الصواب الصامت، تدخل إصبع يدها الأخرى في دبرها، بعد غمســه

في فمها المبلّل باللعاب المتخثر، في ذروة هيجان كإلهة حب مشـــتعلة بنار لا تنطفئ.

تمضي الســـنوات تحت عنوان لا جديد تحت الشـــمس، يكبر الأطفال ويشـــيخ الكبار، وتهرم الأبنية المشـــوهة البناء منذ الأمـــد، لتتحول المدينة العشـــوائية إلى مصنع للبشـــر المعطوبين بعقلياتهم وتراكيبهم كمخلفات غير نافعة، تجعل من النهضة الاجتماعية حلماً بعيد المنال.

نعيمة التي رجعت أســـرع مما كانت عادتهـــا عند قضاء حاجاتها المعتادة في السوق في رفقة صغيرها، دخلت الغرفة فجأة لتجد نفسها مدهوشة الفهم أمام مشـــهد مكون من طفلين ثالثهم فؤاد، وهم عراة منزوعو السراويل، واحد ملتصق بمؤخرة الآخر إذ يشكّلون قطاراً بشرياً متصلين بأعضائهم ومؤخراتهم، وفؤاد في آخر الصف، عضوه غير متصل يرتدي صدرية نعيمة.

كانـــت نعيمة التي فقدت النطق والقدرة علـــى ردة الفعل مصعوقة بما لم يخطر على بالها يوماً أمام ســـراب هرولة الأطفال من حولها كالأشـــباح، وهم يرتدون ســـراويلهم فارين، في لحظة فقدت عندها الإحساس بالوقت وكل ما يحيط بها، أمام سكتة دماغها الفكرية وعجزه عن معالجة ما رأته في اللحظة.

سحب الطفل الصغير جلبابها المتكرر، ومناداتها ـ ماما، ماما ـ، كالصوت الـــذي يتغلغـــل في الحلم، فـــي حيز من الزمـــان بين النـــوم واليقظة، جعلها تستجيب شيئاً فشيئاً، وتستجمع ركبتيها المشتتتين، في لحظة، افتقدت حميد إلى جانبها، الذي لن تســـتبدله الدراهم التي يرســـلها في مثل هذه المواقف الحالكة، فأخوات نعيمة وأهلها كانوا بعيدين في البادية، ومعرفتهم بما حدث

ســـتضر بسمعة ابنها أزيد من نفع دعمهم لها. تعيش مخاضاً جديداً تحرم فيه من كلّ أشكال التخدير أمام الألم المحتوم من أجل سلامة طفلها.

إســـمع يا بني، هل أنتم متعودون تمثيل ما تقومون به، ســـألت نعيمة فؤاداً في هدوء وحرج.

– نعم..

– هل تضع عضوك على مؤخراتهم؟

– لا أستطيع أن أتكلم معك في مثل هذه الأشياء، أنا لست طفلاً.

جملة جعلت نعيمة تغوص بعيداً في تفكيرها، متفرســـة النظرات في فؤاد، أخذت كلّ ملاحظتها المســـتبعدة بجد عن ســـلوك ابنها وحركاته التي كانت تشبه البنات إلى حدّ ما، لكن مع صغر سنه كانت تهدئ من شكوكها باكتمال رجولته مع بلوغه وتقدمه في العمر.

صمت لا أحد يجرؤ على كســـره، كأنها لحظات إحراج تشـــل أيّة مبادرة لإنهـــاء جمودهـــا إلى أن نهضت نعيمة لتعد العشـــاء كأن ما ســـبق هو لقطة محذوفة من مسلسل اليوم.

بعـــد ليلة من التفكير المهموم، قرّرت نعيمة إخبار حميد، لأن فؤاداً كونه قاصراً بعد، من حق والده أن يعرف أيّ مشكل يواجهه، حتى لا تتحمل وحدها عواقب قراراتها المنعزلة. مع أنها تعرف أن بُعد زوجها سيجعله قلقاً أكثر، في غياب خطوات على الأرض تجعل له تأثيراً في مجريات الأمور.

بعـــد أن أنهت المكالمة مع حميد الذي اســـتقبل الخبر بنوع من التفهم، بسبب تعوده طبيعة الحياة المنفتحة في الغرب، إكتفـــى من أن يطـلب منها

عرضه على إختصاصي جيد ووعد إياها بدعمها بأيّ شيء تحتاجه.

وسط عيادة للأمراض التناسلية والولادة، في أحد الشوارع العريقة التي خلفها الاستعمار الفرنسي، تجلس نعيمة في قاعة الانتظار مع ابنها البكر، شاردة الدهن، منشغلة بما سيقوله الطبيب، وبطفلها الصغير الذي خلفته وراءها عند أحد جاراتها.

كانت قاعة الانتظار تكتظ بالنساء والأزواج بإيقاعات الأحاديث التي كانت تحيكها النساء بطبيعة حبهن للثرثرة، وسرعة انفتاحهن على بعضهن، مع بعض الشهادات التي تتكرّر عن حنكة الطبيب صاحب العيادة. السيدة في جوار نعيمة تسألها عن الخطب الذي جاء بها إلى هنا، لترد عليها نعيمة أن الموضوع متعلّق بالولادة، لكن السيدة نظرت إلى فؤاد ونعيمة بارتياب ضاغطة على ملتقى شفتيها حتى رسمت عبارة صامتة تقول ـ الموضوع فيه إن ـ

جاء دور نعيمة مع إبنها، لتتجه إلى قاعة الفحص وقلبها يدق بإيقاعات المتسابقة، مع شعور بالرهبة تسلّلت لكلّ من نعيمة وفؤاد. بعد تجاوز مدخل الغرفة تشير الممرضة إلى مكان الجلوس وتغلق خلفهما الباب، تاركة الابن وأمه وجهاً لوجه أمام مكتب الطبيب، ينظران في جميع الاتجاهات.

يكسر المشهد خروج الطبيب من إحدى القاعات المجاورة، ملقياً التحية بابتسامة، موقرة، بهيأة رجل خمسيني بشعر تمكن منه الشيب ببياضة شاملة، لم تترك للشعر الأسود منطقة يتحصن بها، ـ إحكي لي سيدتي ما المشكل ـ وجه كلامه لنعيمة وهو يستقر على الكرسي.

نعيمة التي خانتها كلّ السيناريوهات التي أعدتها سابقاً، لتتحول أمام الطبيب إلى مجرد مرأة لا تجيد القراءة والكتابة، لم تكن المسلسلات

والأفلام التي تنفتح بها على العالم كافية، لتصنع منها مرأة واعية وفي مستوى هذا العالم المعقد، الذي تصبح معه نصوص السينما، خرائط غير متطابقة مع مسالك الحياة.

وسط صمت مطبق، جعل الغرفة ببياض جدرانها، وإنارتها بشمس يوم جميل، لا تعدو أن تصير ظلمة جاثمة على قلبي نعيمة وفؤاد، أما الطبيب، فبدأ غير مستعجل، يخطط في ورقة فطنته ببوادر الموضوع الساخن، الذي ستتقلّص رقعته مع تخطي حاجز الصمت، فعادة المشكلات التي لا يمكن التكلم عليها، تبدأ بمشوار حلها أو التخفيف من أثرها، بقبولها ومشاركتها بنفس متصالحة، تسهل معها الوصول إلى المعنويات المرتفعة من أجل القتال إلى أمام.

– أحبّ الأولاد ـ نطق فؤاد.

– لا بأس، ومند متى.

– لست أدرى بالتحديد لكنني وعيت بالموضوع أخيراً، أحب أن يلمسني ويشتهيني أحدهم.

– كيف وصل بك الأمر إلى هنا في رفقة أمك؟

– وجدتني مع شركائي مرتدياً أغراضها

– هل يمكنني الكشف عليك؟

– نعم

– تفضل أن تكون أمك في رفقتك؟

– كما تشاء سيدي.

بعد أن تقــدّم الطبيب نعيمــة وابنها إلى صالة الكشــف، تكلّفت نعيمة بالاحتفاظ بملابس فؤاد، في حين أنه يتخيل إليها أن الفحص سيكشــف لها جديــداً عن ابنها، فقد تزعزعت صورة ذلــك الطفل البريء الذي تخيل إليها أنها تعرفه منذ ســنوات كراحة يدها، لم يخطر ببال السيدة المتبلّدة أن راحة اليــد بها خطوط ظاهــرة وأُخَر تحتاج إلى تمحيص وتدقيق لكشــف معالمها وانحناءتها.

بعد كشــف سريع، طلب الطبيب من فؤاد ارتداء ملابسه واللحاق به. أما نعيمة فطلب منها مرافقته فوراً.

– سيدتي ابنك سليم، ولا تظهر عليه مظاهر اختلال هرموني.

– ولكن ســيدي، لا يمكن أن يكون كلّ شــيء على ما يرام، أنت لم تقم بالتحاليل أو غيره، ضروري أن يكون هناك خطب.

الطبيب الــذي أحس بالمأزق، أمام الأم التــي تبحث عن حلّ يعرف هو ســلفاً أن التصديق بعدم وجوده من أول خطوة سيكون مدمراً لنفسيتها، لكنه كطبيب عليه الوضوح كما تفرضه عليه أعراف المهنة.

مع اقتراب فؤاد للانضمام إليهم، أكمل الطبيب: – في حدود اختصاصي، أســتطيع أن أجزم أن ابنك لا يعاني أيّ خطب، ولا تتطلّب اختبارات إضافية لأنّها ستكون مضيعة للوقت والمال، بلا فائدة تذكر، لا يمكنني صنع أمل لك يوافق رغباتك ولو بتضليلك.

أكمــل الطبيب كلامه وهــو يخرج بطاقــة مهنية لأحــد الاختصاصيين النفســيين: أنصحك بمراجعة هذا المعالج، فهو شــخص مستقيم، وله تجربة

في ما تمرون به. إنَّ صحة فؤاد ستجعلك سعيدة لأنّه معافى – يبتسم وهو ينظر في اتجاه فؤاد – أصحيح هذا؟

ثم ودعهما طالباً منهما الاتصال به وقتما احتاجوا إلى مساعدته وهو يرافقهم إلى خارج مكتبه.

نعيمة، يعانقها يأس مطبق في صحبة ابنها في طريق العودة، وهما يعبران معالم الدار البيضاء التي تتغير باستمرار كجارية يزينها كلّ مالك على ذوقه. عدم تعلمها لا يحول دون فهمها لعقلية المجتمع الذي لن يدع ابنها وشأنه، ولا هم معه، فالأسرة كلّها ستدفع الثمن، أكان لها دخل في ما يجري أم لا، فإذا كانوا المسيرين لهذه المدينة، بما يمتلكونه من دراية وتدريب لم يحترموا معالم المدينة التاريخية وطمسوها بجرافاتهم في وضح النهار مغتصبين الذاكرة التاريخية الجماعية. ماذا سيمنع باقي العامة عن حشر أصابعهم في مؤخرة ابنها، معتقدين أن لا مانع ما دام ميوله يسمح.

نعيمة التي اعتادت ضنك العيش، تكتشف الآن أن للمال حدوداً، وإن الطبيعة والأقدار لا يمكن تداولها بالعملات، فهمت متأخرة أن النقود لو كانت إلهاً لما وضعوها بمحفظات صغيرة تحشر في جيب.

بعد وصولهما إلى عيادة المعالج النفسي، والتحقق من مكانها، أخذا موعداً وعادا ادراجهما، صوب الجانب العشوائي من المدينة، التي لا تحب لباساً غير الجدران، في غياب شبه تام للمساحات الخضر. (تداحس) يجعلك تتخيل أنك في بلد سكانه يتخطون المليار بقليل.

عودة نعيمة من الشوارع إلى الأزقة الضيقة جعلت صدرها يضيق أكثر،

متجنبة نظرات الجيران، ومتحاشـــية إلقاء التحية، مع الإحساس بالثقة بالنفس تتراجع.

المكالمة المســـائية مع حميد كانت مقتضبة جداً، فإحدى الحلقات التي عملت على ترابط الزوجين تعاني مأزقاً، تحول معه فؤاد البكر، من أول نقطة امتـــزاج بين كيانين إلى عامل نفور يصعب على كليهما تقبله. أما فؤاد فأصبح أكثر وحدة مع انكشاف أمره، صار مشتاقاً إلى حوار بالصوت والنظرات كما كان دوماً مع نعيمة، فبالنســـبة إليه هو فؤاد الذي كان دوماً، أما بالنســـبة إلى نعيمة فقد ضاع منها فؤاد الذي عرفته والذي هو في حقيقة الأمر باقٍ على حالة.

ظلّت نعيمة منغمسة في أزمة صراع عن ماهية الآخر، وهل هي ماهية ثابته وترتبط بموضوعها، أم أن ماهيتنا عند الآخر ترتبط بالتقييم المتغير حسب تغير الإشارات التي تصله منا.

مثـــل الذي يقول إنه يعرف أحداً جيداً، في الوقت أن الشـــخص موضوع المعرفة، نفســـه يكتشف من هو مع الوقت، بل يمكن أن يعيش حياة بكاملها وهو لم يعرف من يكون حقاً، أو ربما قضاها وهو يقوم بأشـــياء لا تمثله فقط لكيلا يخالف عادات مجتمع ينتمي إليه.

ليوميـــن متتالين يغيب فؤاد عـــن الإعدادية، في بحثه مع نعيمة عن الدواء لعلة إلى الآن هو لم يستوعبها.

بجســـمه النحيف وشعر يشبه شعر نعيمة البني، وملامح مريحة، تميل إلى كونها لفتاة غير أن تكون لولد، يجلس فؤاد بهدوء، في ســـيناريو يشبه الذي قبله قاتلاً الوقت فـــي النظر إلى تفاصيل العيادة، وبعض المجلات بين الفينة والأخرى، ونظرات المتقاســـمين صالة الانتظار تخفي الرغبة في كشف بعض

الأسرار، فعقل الانسان لا يقبل أن يتشارك المكان مع أشخاص بلا معطيات، فيلجأ إلى ملء الفراغ بأشياء تحيكها المخيلة التي تخلق انطباعاً في الأغلب لا يرتبط مع الواقع بأواصر حقيقية.

يرجع الحاضرون بالتتابع مخلفين مقاعد خالية في الصالة، ومجلات لم تلحق بموضعها، إلى أن حان دور نعيمة مع ابنها، ليجدا أنفسهما أمام مكتب يتوسطه شاب وسيم بابتسامة حقيقية وملامح مشعة، تناقض الألوان المظلمة لمعظم الأثاث، بخلاف عيادة طبيب الأمراض التناسلية

تفضلا بالجلوس قال الطيب – أسعدتني بلقائك فؤاد – والتفت إلى نعيمة في الجهة المقابلة: اسمك نعيمة على ما أعتقد. وأكمل: لقد كلمني الدكتور منصور في أمركما، لذلك من الأحسن أن ندخل في صلب الموضوع. هل تفضلين أن نتحدث عن الموضوع في حضورك سيدة نعيمة أم على انفراد مع فؤاد، فبحكم كونه قاصراً، القرار يرجع إليك.

– ماذا تريد؟ – موجهة السؤال لفؤاد –

– ليست ثمة مشكلة من بقائك – أجاب فؤاد نعيمة –.

حسنٌ لنبدأ إذاً –، أضاف الطبيب بدوره –

وأضاف: عندي مجموعة من الأسئلة أود أن أعرضها عليك وتستطيع أن تجيبني أو تمتنع، لكن لا تعطني أجوبة أنت غير مقتنع بها، لأن دوري هو محاولة مساعدتك بما توفره لي من معلومات.

حسن، – أجاب فؤاد–

– هل تشعر أنك ولد أم بنت؟

– أحس كشـــكلٍ أنني ولد، أما ما يخص إحساســـي الداخلي فأحبّ أن أكون فتاة

– كيف تحس تجاه البنات؟

– لا شيء

– هل تهتم بالاقتراب منهن واكتشاف أجسادهن؟

– لا هذا مقزز

– وإذا ما طبقنا هذه الافتراضات على الأولاد؟

– يختلـــف الموضوع مع الأولاد، أحب بعضهم بطريقة خاصة، وأرغبه أن يقترب مني أكثر

– هل ســـبق أن عاملك أحدهم بحميميـــة وأنت طفل؟ تعرف ما أقصد، أصحيح كلامي؟

– لا لم يسبق أن كان لي أيّ نوع من التجارب

– يجب أن أذكرك باتفاقنا، لن نخفي على أنفسنا أيّ شيء.

– بالتأكيد، أنا صادق في كلّ ما قلت

– كيف وصل الموضوع إلى أسرتك

– وجدتني، ألعب لعبة الحب بملابسها مع أولاد آخرين

– كيف حدث هذا

– كانـــت فكرتي في الأول في أحد الأيام ونحن مجتمعون حول موضوع الجنس في حلقة مع مراد وصفوان، بدأ كل منّا بعرض نظرياته، وقد حكى لنا مراد أنغام أصوات للمتعة التي يسمعها من أبويه

وهما نائمان. فقررنا أن نستكشف متعة من حق الكبار فقط

– هل سبق لأحد أبويك أن شرح لك أسس العلاقة الجنسية؟

– والدي غادر المغرب مذ كنت طفلاً إلى إيطاليا، أما أمي فلم يسبق أن تكلمنا في الموضوع.

– في كلّ الأحوال الجميع يحتاج الى تربية جنسية، الولد حال الفتاة، لكن بحكم الأعراف وعدم التعلم الوالدة أتفهم الأمر إلى حد ما.

– إسمع فؤاد، موضوع الميول الجنسية ليس بالسهل، وللأسف ليس هناك مراجع علمية دقيقة أثبتت نجاعتها، فنحن لا نتوفر سوى على نظريات، أصحابها متعصبون لها ليس أكثر وليس أقل من ذلك، هناك نظرية العامل الوراثي أو الميل التعودي الذي ينشأ بالممارسة الخاطئة، أو يبدأ باستغلال جنسي للطفل يألف بعدها تلك العلاقات، أو بسبب عوامل ترتبط بظروف وبيئة نشأته. فكلّها تبقى معطيات تؤخذ بالحسبان، فربط ما تعيشه بسبب واحد يدخلنا في متاهة لا نهاية لها، بحكم أن كلّ نظرية تتأثر بحلقة مترابطة يصعب الإحاطة بكلّ تفاصيلها.

في الحقيقة ستجد أن الدراسات المنجزة في الموضوع، لا تعدو في كونها نظريات لا حدود لأطاريحها المتمنطقة، المتعارضة والمتبارزة، كحوار بين شخص يعبد البقر وآخر يعبد صنماً، الكلّ مقتنع بمنطقية أفكاره ورجاحتها وقدرتها على الافصاح ولكن الحقيقة لا تكتمل بالإقتناع بالفكرة، بل بالأدلة القاطعة الملموسة.

الكتب متوفرة بكثرة ولكنها لا تخطأ كونها كتباً روائية أزيد من كونها علمية محبوكة بالأساليب التي يلجأ إليها البائع الذي يستطيع أن يجعلك تقتنع

باستثمار أموالك في حقيبته الاستثمارية، لكنك وحدك من ستتحمل الخسارة في الآخـر، لأن قدرته على (إقناعك) لا تصنع ضمانـات حقيقية تقيك من هامش الخطأ، كمن يرسـم لك طريقاً إلى القمة من دون التكلم عن إمكانية الانزلاق نحو السفح.

نظريـة تأتـي وأخرى تذهـب، الفراعنة مثـلاً بنوا الاهرامـات مدفوعين بتصوراتهـم عن العالم الآخر، لكن لم يعش أحد منهم ليعرف مدى حماقتها، بعد أن ينتهي بهم المطاف معروضين للفرجة والتشريح والسرقة.

يا للأسف نحن أمام أزمة صدقية لأن الناس أصبحوا يتعصبون للنظرية أزيد من الحقيقة، بل لم يكن أحد يفرق بينهما.

موضوع الجنس قديم قدم الخليقة، وتختلف عاداته حسب العرف والثقافة، ولكيلا نقارن بين أزمنة مختلفة، دعنا فقط نتكلم على عصرنا الحالي، ونأخذ مثلاً التعدد للنسـاء والرجال وزواج الأقارب والقبل في المجتمعات، سـتجد الشيء المقبول نفسه في مجتمع يثير الاشمئزاز في مجتمع آخر.

هذا لا يعني يا فؤاد أن ما تحس به شيئاً طبيعياً، لكن في الأقل حاول فهمه الآن بصيغة صحيحة، ولا تنسَ أن ميولنا إلى شيء معين لا يعني بالضرورة أنه مباح عمله.

لا أسـتطيع أن أخبرك غير ما أخبرتـك، فحالتك لا تمثّل مرضاً يجب أو يمكن علاجه، وأنا لست عالماً، بل أبقى طبيباً معالجاً لا يمكنه ممارسة مهنته بعيداً عن الإطار العلمي وإلّا سأسقط في فخ الدجل والكذب.

بعد خطبة المعالج الطويلة التي لم تتجرأ نعيمة على مقاطعتها، فهمت أن عليهـا الاعتناء بولدها كبنت، لأنّ لا حرج علـى الذكور في المجتمع الذي يتماشـى مع القولة الشـعبية: "تربط الكلبة وليس الكلب". فالابن لا يجلب العار ولو نكح الكرة الأرضية في يوم واحد.

خـرج فـؤاد بمعية أمه من العيـادة من دون دفع مصاريـف، كهدية من المعالج للتخفيف عن كاهل الأسـرة. أما فؤاد فبـدأ يحس بالأمل مع وجود أشخاص متفهمين في مجتمع لا يرحم.

قاطعت نعيمة سلام فؤاد الداخلي:

– تعرف يا بني مع أنني مرأة وعلاقتي بالرجل أمر تسمح به الطبيعة، لكنني لـم أعرف رجلاً قبل والدك ولا في غيابه. هذا الموضوع ليس كلّ شـيء في الحياة، عليك الاهتمام بدراستك ومستقبلك الجميل الذي سيكتمل بالتحاقنا بوالدك في إيطاليا. ولا تنسَ ما يقوله الدين عن الزناة أرجالاً كانوا أم نساء، فلا أظن أنك تريد إغضاب الله والذهاب إلى جهنم أو الإساءة لسمعتنا.

– طبعا لا.

رَقَصْنَا قَبْلَ الغِنَاءِ
عَزَفْنَا قَبْلَ الكَلَامِ
أسَافِر فَوْقَ صَهْوَةَ أجْدَادِي

الشَّجَرَةُ قَائِمَةٌ
كَانَتْ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ
الثَّعْلَبُ الْحَزِينُ
إشْتَاقَ إلَى جَارَتِهِ الأَرْنَبَةُ
الْعُصْفُورُ تَعَلَّمَ الْكِتَابَةَ
لَمْ يَعُدْ أحَدٌ يُطْرِبُ الْغَابَةَ

السَّمَاءُ كَعَادَتِهَا
تَلْعَبُ الْغُمَّيضَة خَلْفَ السُّحَيْبَاتِ
الرَّعْدُ يَشُقُّ زُرْقَتَهَا
يُفْسِحُ طَرِيقًا للأمطار
الثَّلْجُ فطُورُنَا
يَكْسِرُ الْقَرَامِيدَ ويَخْتَفِي
يَتْرُكُ دَلِيلًا خَلْفَهُ
إلَى أنْ يَتَبَخَّرَ هُوَ أيْضًا
تَتَحَوَّلُ جَرِيمَتُهُ كَامِلَةً

تَكْسِرُ الْفَأْسُ أضْلَاعَ الصَّفْصَافِ
لَا مَنْ يُواجه الْعُنْف
لَمْ يَقْبَلِ الْقَاضِي الدَّعْوَةَ
لَا فُصُولَ لِقانونِ الْحَيَاةِ

مرّت سنوات الإعدادية من دون أن ينتبه أحد إلى فؤاد، لكن الشكوك حامت حوله أكثر بتدقيق أعين الحارة وأفواهها التي تنقل الإشاعة كالبرقيات العسكرية. مشاركته في الحلقات الحوارية لبنات الحي وقبوله بينهن وخلق صداقات معهن من دون الأولاد، كان لافتاً في مجتمع لا ينتشر به هذا النوع من الاختلاطات عملاً بالمثل الذي يقول " مع من رأيتك، مع من شبهتك " صار فؤاد يلقب "ببديعة" اسمه الحركي الجديد بالحي الذي لم تكن تعرف به نعيمة بعد.

قبل العيد قصدت المصففة في الممر عند مدخل الزقاق الذي تسكن فيه، جلست في انتظار دورها في مشهد (تداحس) يتكرر مع اقتراب كلّ الأعياد، يصبح المصفف فيها ذا شأن عظيم يرفض حتى التعامل مع الزبائن غير المنتظمين، وقليل الكلام واللطافة.

صوت المجفف، رائحة الشعر، الحرارة المرتفعة للمكان، مشهد مرهق كالملل، يكسره زائر نحيف طويل القامة، رجل البنية، أنثوي الحركات وأسلوب الكلام، يمد يده، عابراً كل الأعين بالباروكة تغطي يده، آخذاً الوجهة نحو المصففة: من فضلك صففيها لي.

– أنا مشغولة الآن لا يمكنني ذلك.

جواب جاف، قابله الزائر بصدر رحب: ليس هناك مشكل، سأتدبر بها أمري هذه الليلة، وأرجع غداً إذا كنت متفرغة.

– لطفك يا الله ـ نطقت إحداهن.

– لقد كثروا ـ تجيب أخرى.

– منهم من له أولاد وأسرة، لكن حركاته وأسلوب كلامه يكشفه

– أعتقدك تتكلمين على أدهم، الذي له بنت وولد يربيهم بعيداً عن زوجته

– نعم، وما خفي أعظم

كالتصفيقات الأُوَل التي تتقدم التصفيق الحار بالتجمعات، لينطلق حوار حار السجال بين النسوة، حوّل هدوء الصالون إلى جلبة من الآراء المنعزلة لتسجيل الحضور بين النسوة، لكن الرأي الذي أثلج صدر نعيمة المحرج هو رأي إحدى السيدات عندما قالت: ليس كلّ النساء عواهر، وليس كلّ المثليين.

– نعم معك حق هناك مثلي في الزقاق المقابل، لا يلبس باروكات ولا يخرج مع الرجال وهو لطيف جداً ومهدب، ـ في هذه اللحظة استيقظ فضول نعيمة كأيّ كلب حراسة سمع قرقبة ـ يلقبونه ببديعة عوض اسمه

– وما هو اسمه ـ سألت نعيمة

– أظن فؤاد

تكمد قلب نعيمة، وسط جلبة خفت صوتها أمام جلبة مشاعر المبتلى وسط المتعافين، منسحبة من الدور، متنازلة عن استقبال العيد، والفرح أمام حياة العار التي وجدت نفسها عالقة بها، فقد بذلت كلّ ما في جهدها لتصون نفسها وتربي أبناءها على أكمل وجه، فغياب حميد منحه صك براءة مما يحصل لفؤاد ويجعل نعيمة وحيدة بلا منازع وسط قفص الاتهام.

زادت عزلة نعيمة الاختيارية مكتفية بنفسها في رفقة ظلّها، مقتربة من الجدران كلما مرّ أحد بقربها، هربت بنظرتها بعيداً حيث لا عيون تبادرها بالتحيات، متملصة من اختلاطات نساء الحي اللواتي يتفاخرن ويتباهين في ما بينهن، للحصول على الجرعة النفسية من الإحساس بالاستحقاق والمكانة الاجتماعية.

حتى فؤاد يئست من أمره متنازلة عنه للطبيعة التي صنعته، مكتفية بالعناية بشـــؤون بيتها وتربية ســـمير، متعافية كلياً من شيء اســـمه الغرور، فلو خيرت لإختارت كدح الخادمات على لقب أم المثلي.

لطافـــة فؤاد ورقته جعلتا كلّ من يعرفه يحبه ويتعاطف معه، فقد كان يعيش اختلافه بكلّ لباقة بعيداً عن الاســـتفزازات، مستوعباً الهوموفوبيا التي يعانيها المجتمع، وعيه جعله يتقبل اختلافه واختلاف الآخرين عنه وعدم قدرتهم على فهم طبيعـــة اختلافه، في الوقت الذي كان يعانـــي أقرانه الكثير من الأزمات النفسية التي تقذفهم بين أحضان الإدمان والاكتئاب، وفرض الأمر الواقع على مجتمع غير متعود القبـــول باختلاف الآخر خصوصاً مع وجود العامل الديني الذي يفعّل في بعض الجوانب أزيد من غيرها.

أما فؤاد فكان ذكياً وفهم كيف يتعامل مع الثور من دون أن يسبب الأذى لأيّ منهما. ينتقل بسلاســـة في مشواره الدراسي، بعيداً عن التنمر الذي كان في ذروته عند الإعدادي، فقد كان يجد عادة أصبع أحد في مؤخرته، لكنه لم يكن يأخذ الموضوع على أنه تمييز إزاءه، كون الفتيات يعّرضن إلى الســـلوك نفســـه من قبل الذكور، بل حتى الأولاد يمكن أن يمارسوا هذه التصرفات من أجل الهزء، أو ينجذبوا جنســـياً كما يحدث بيـــن ذكور الحيوانات وحتى إن الكثير من الأولاد سيقبلون في قرارة أنفسهم فكرة مضاجعة فؤاد بسبب أنوثته ونعومته، مدفوعين بكبتهم في غياب ثقافة جنسية ومتابعة من قبل المختصين بالمدارس.

التعليـــم هنا لا يقوم بدوره مـــع أنّ أن الحقيبة الوزارية بعنوان وزارة التربية الوطنيـــة، لكنهـــا في الحقيقة لا تعـــدو كونها وزارة تلقيـــن واختبارات ونقاط

ليـــس غير، فليس هناك أيّ نوع من التربيـــة الاجتماعية التي يجب على دولة ممارســـتها لتوحيد الهوية الثقافية للمجتمع في غياب أســـرة غير مؤهلة، في الأغلب لا تؤدي دورها كما يجب، وســـط الأمية والفقر تصبح الأولوية معها لتأمين الاحتياجات الأساسية فقط.

ضجيج في مدخل الحي. ســـيارة نقل متوسطة بلوحة ترقيم أجنبية، الكلّ يتوقف للتحية. إنه العياشـــي المربع الشـــكل مع بعض الاناقة، ورائحة عطره الجميلة التي حولت صورته النمطية إلى بائع زهور.

يســـاعده الجيران في نقل حقائبه، التي ســـيكون لهم نصيب في ما تحويه من صابون وحلويات وقهوة.

أصبح العياشـــي بائع الخضر، ينادى من قبل أقرانه بالسيد العياشي، فقد تموضع فوق قمة الهرم الاجتماعية في الحارة عندما هاجر إلى بلاد الأجانب، مع إحساس زوجته بفخر لا تسعه حدود الحارة، فقد صار إلقاء التحية مقروناً بمبادرة من الآخرين، وألّا يقصون من نيل نصيبهم من هدايا العياشـــي التي لا يمكن الحصول عليها محلياً.

عندما عرفت نعيمة بالموضوع ذهبت إلى زيارة العياشـــي حتى تطمئن على أحوال حميد الذي لا يتوفر لرجوعه تاريخ. إســـتقبلتها عائشة استقبال مثيلتها الوحيدة التي تعامل بندية في الحارة مســـتعملة عبارة السيدة نعيمة في بهرجة بروتوكولية تعيش وهمها وحدها.

– سمعت بعودة العياشي، هل يمكنني مقابلته؟

– أكيـــد حبيبتي أنت زوجة زميله في الغربة، وتســـتطيعين مقابلته في أيّ وقت، مرحبا، مرحبا.

إســـتقبل العياشي بدوره نعيمة ببشاشة، فقد لاحظت نعيمة علامة تقاسيمه التي يبدو عليها الرضى بالمقارنة مع العياشـــي المتشـــنج العصابي، أيام كان بائعاً للخضر في السوق الهامشية، كان متجدداً بنفحة حضارية ولّدت إضافة محببة على بدنه المربع.

– كنت سأرسل في طلبك، لقد أرسل لك حميد طرداً

– استحلفك بالله، أن تخبرني سبب تأخر حميد في الرجوع لزيارتنا

– أنت تحرجينني هكذا أختي نعيمة، لا شأن لي في أموركم العائلية، لكن لكيلا تتخيلي الأســـوأ، أعتقد أن السبب هو فؤاد، حميد يتجنب العار الذي عليـــه مواجهته في أعين الناس، لذلك هو يبحـــث إمكانية إحضاركم لإيطاليا لكي يجتمع معكم هناك.

صمتـــت نعيمة من دون النبش في التفاصيل، رأســـها إلى الأســـفل، فقد وجدت نفســـها أمام ما كانت تهرب منه منذ مدة، في موقف صنعته بترتيبها، كأن الطريق كلّها أصبحت تؤدي إلى فؤاد.

يَا بَائِعِي افْتَحْ قَبَضْتَكَ لأرَى الثَّمَنَ
لِأُهَوَّنَ عَلَى رُوحِي الشَّطَطَ
بِعْنِي وَاقْبِضْ بِالذَّهَبِ
اجْعَلْنِي عَبْدًا مَرْفُوعَ الرَّأْسِ

قُلْ لَهُم إنِّني أصِيلٌ
إبْنُ التَّارِيخِ وَ النَّخِيلِ
وَ سَيِّدٌ مُنْذُ سَبْعَةِ آلاف سَنَةٍ
أنَا مَنْ سَلَّمْتُكَ رَقَبَتِي وَوَثِقْتُ بِكَ
لَا مُلَامٌ أنْتَ، فَكُنْ ابْنَ عَادَاتِكَ
هَلْ تَلُومُ الضَّبْعَ وَأنْتَ أسْكَنْتَهُ بَيْتَكَ

هَيَّا يَا مَالِكِي، أُحْكُمِ الْعُقَدَ
اقْفِلِ الْأَصْفَادَ
اخْتَلْ بِالْمِشْيَةِ، وَارفع رَأْسَكَ
بِعْنِي بِيعَةَ الْبَشَرِ فَلَسْتُ غَنَمَكَ
سَأَهْمِسُ لَكَ سَأُعْلِّمُكَ
لَا أُرِيدُ أنْ يُعْرَفَ أنَّ سَالِبِي مُبْتَدِئٌ
فَيُكْتَبُ فِي تَارِيخِي الْعِبْرَةَ
سَيِّدِي، ألسْتَ سَيِّدِي

مَا أَجْمَلَ اسْمَكَ
لَاقَ عَلَيْكَ ثوْبُكَ
لَاحَتْ فِي الافُقِ رَائِحَةُ عِطْرِكَ
تِلْمِيذٌ نَجِيبٌ لِعَبْدِكِ
سَيِّدِي، ألسْت سَيِّدِي

فـي مجتمـع يعرف تسـابقاً محموماً من أجـل التعلـم والحصول على الشهادات، ظلّ مدفوعاً بتعويض النقص لذا الآباء الذين لم يحققوا الكثير في الحقبة السـابقة، مع الغياب لرؤية غير نيل الشـواهد للعمل بالمكاتب. كان حال فؤاد الذي شقّ طريقه إلى الجامعة ليجد نفسه في بيئة وجدت إحتقانات العالم الخارجي حاضنة بين مدرجاتها وسـط تيارات متقاطعة، مستغلة الحرم الجامعي للحصول على حصتها من الأسـماك الطازجة التي ستكون مستقبلاً ووقوداً لأفكارها وتوجهاتها.

فؤاد الذي كان محايداً يبحث عن حياة من دون مشكلات ظلّ وحيداً بعد التحاق أمه مع أخيه سمير بوالده في إيطاليا.

حتى إنه لم يفكر في الحصول على أصدقاء مثليين، فبالنسبة إليه الميول الجنسـي ليس موضوعاً فكرياً أو توجهاً تبنى عليه العلاقات، فأنت لا تختار صديقـاً لك لأنه ولد أو بنت، وحتى مـن المنخرطين في التيارات الفكرية لا يبنون انتماءاتهم على أسـاس الجنـس لكن الفكر، عدا هذا فليس هناك تيار يحب المثليين، أو له الشجاعة على الدفاع عنهم خصوصاً الرجال، خوفاً على الطعن في رجولتهم.

تمضي حياة فؤاد مـن دون أحداث، في إعجاب وحب صامت مكبوت، بيـن الفينة والأخرى لزملائه؛ آخرها شـاب يجلس بالموازاة معه في المدرج، ملامحـه هادئة يدعى (رفيق) كان فؤاد يحبه بصمت مختلسـاً النظرات إليه فـي غفلة كما تفعل الفتاة، وعند عودته إلى المنزل يختلي بنفسـه وحيداً مع جسـده، مشـتعلاً برغبته الكبيرة في الجنس وبقضيب كبير يخترق مؤخرته،

ويحلم بيـــدي رفيق تعصران صدره فيذوب بين اللذة والألم، مداعباً بيده إلى أن يرتعش ويخفف بنشـــوته المصطنعة شوقه الكبير إلى الحب الحقيقي الذي يتشارك لذته مع حبيب حقيقي.

وســـط الدرس، يميل رأسه خلسة، لاستراق النظر، فيجد نفسه متحداً مع رفيـــق بالنظرات، يبادره رفيق بغمزة، لا يتأكـــد لفؤاد معنى لها، غير أنه تخيل إليه في لحظة توقف فيها الزمن، ليصبح وجهاً لوجه مع رفيق.. إنّ كلّ شـــيء ممكن وإنّ العالم ليس بهذه التعقيدات.

يكـــون عند رجوعه في المســـاء حائراً في بصيص الأمـــل الوحيد، معطياً تفاسير لا نهاية لها لغمزة ثانية من الزمن، تحولت إلى مشهد لا حدود مكانية أو زمانية له. شـــرد في فكره إلى أن خنقت لفة ذراع عنقه وسحبته بعيداً على الممـــر، يحاول التخلص منها بأنفاس مقطوعة، يبحث فقط عن فرصة للكلام خوفاً من أن يموت من دون أن يعرف لماذا.

بعـــد مدة من الســـحب، تطلقه قبضات الأذرع ليقع مغميـــاً عليه، لبضع دقائق، يستفيق على حلقة من الملتحين يتقدمهم شخص:

– إنهض يا عدو الله

– ماذا، ماذا يجري، أظنكم مخطئين في الشخص، أنا لم أفعل شيئاً.

– أنت كلك فعل شـــؤم بشخصك قبل فعلك، إسمع أيها اللعين المثلي، كان يمكن أن يكون اليوم آخر يوم في حياتك، فقتلك حلال طيب، وعواقبه حســـنات لا تعـــد ولا تحصى، لكن لحســـن حظك الـــذي أوقعك في أيدي أشـــخاص رحماء، ســـأقول لك جملة لن أكررها، لديك خياران، إما ان تغير

مشـــيتك وطريقة تعاملـــك، وتتعامل كباقي الرجال، أو أصـــدرت فتوى بهدر دمك، أيّها الجرثومة القذرة، تفو عليك. أتمنى ألّا نسعد بلقياك مجدداً.

تلك الحادثة بقيت أعراضها جاثمة على قلب فؤاد، حولت سعادته بارتياد الجامعة إلى فوبيا قاهرة، لا يســـتريح من تأثيرها إلّا بعد أن يصرف النظر عن العودة مجدداً إليها.

بعد مضي قرابة عشـــرين يومـــاً على غياب فؤاد عـــن المدرجات، وبينما كان أســـتاذ التواصل بقامته النحيفة وشـــعره الناعم المربوط للخلف مع بدلة كلاسيكية مملوءة بتقاطعات تشكّل مربعات صغيرة، يلقي مادته على الطلاب. إذ يصمت فجأة ويقول:

– شيء ما ينقص هذه اللوحة من يشاطرني الرأي؟

الكلّ بقي صامتاً اعتقاداً أن الأســـتاذ الغريب الأطوار والذي قضى معظم حياته في الغرب يعاني نوبة خرف.

– الفتى، نعم، الفتى. لقد كان يجلس هناك، شعره بني خافت.

– فؤاد!! – أجاب أغلب الطلاب والطالبات.

– مند مدة لم أره، هل تعرفون سبب تغيبه؟

الكلّ بقي صامتاً.

– كيف يعقل هذا ـ أجاب الأستاذ غاضباً

فأجابه الطلاب أنه مثلي، فازداد غليان الأستاذ وهو يقول:

– وبعـــد هل هو من ألقى أول قنبلة ذرية على البشـــر، هل يتحرش بكم، هل اغتصب أحداً منكم، هل نســـبت إليه جرائم حرب أو مقابر جماعية، هل

اختلـــس المال العام، هل هـــو من أوجد المثلية، هل تعرفـــون ما هي المثلية أصلا؟؟... لا أصدق أنني أضيع وقتي مع أشـــخاص مثلكم من دون مواقف. تعتقـــدون أن الحياة هي أن تهتم فقط بمشـــاكلك، أنتم مخطؤون، هناك نوع من المشـــكلات لا يمكن أن يواجهها الفرد وحده، ويحتاج الجميع إلى وقفة متحـــدة حتى تعالج، وكل مـــا ترفضون ثمن تغييره الآن، ســـوف تدفعون في الآخر ثمنه على كلّ حال، وإذا نجوتم من الحســـاب فلن تضمنوه لأطفالكم من بعدكم.

سأذهب إلى الإدارة لأحصل على عنوانه حتى أعرف ما يجري له، تخيلوا أن يكون مختطفاً أو مريضاً يحتاج إلى مساعدة.

ذهب الأســـتاذ صالح إلى الإدارة، إســـتغرق الموضوع بعض الوقت حتى يصل إلى معلوماته الخاصة، بعد تخطي عتبة باب الإدارة وهو عائد رفع نظره إلى حشود من الطلبة والطالبات، كلّهم تلاميذه، أعينهم متهيجة للبكاء، كانوا مصرين على أن يرافقونه، والتحق بهم مدير الجامعة الذي انتبه من نافذته لما يحدث، وعرض عليهم مرافقتهم بعد أن عرف الموضوع.

الأستاذ صالح، أحس بفخر أبوي عظيم، بإنسانية لم تفقد بعد كما تصور، بل هي ضحية لسبات مبرمج.

مع وصول الوفد الجامعي، تشـــكّل قطار بشري طويل أغلق مدخل الحارة متجهاً صوب البناية حيت يسكن فؤاد.

صعـــد إلى البناية ممثلون عن الزائرين، كان من ضمنهم المدير والأســـتاذ وبضعـــة تلاميذ، اســـتقبلهم فؤاد بدهشـــة كبيرة، وفرحة اســـتعاد بها ثقته في

المجتمع بعدما دخل في دوامة اكتئاب كان يفكر على إثرها بإنهاء حياته.

وصل إلى مسامع المنتظرين في الأسفل أن فؤاد بخير، فبدأوا بالهتاف: "نريد فؤاداً.. حبيبكم من.. فؤاد.

وسط الجلبة الكبيرة التي سببتها الزيارة بوفدها الكبير، تخيل أحد السكيرين المدمنين وسط ثمالته أن الحشد جاء لينكح فؤاداً.

فبدأ بالعربدة والتلويح بقارورته: إنه ابن حارتي ولن أدعكم تنكحونه وتلطخون سمعتنا، الحارة بها رجال، ولو دفعت حياتي ثمناً..

فانفجر جميعهم بالضحك من المشهد كمحاولة للتهدئة من روعة السكير، مؤكدين له أنهم ليسوا هنا لينكحوا أحداً.

إنتهت الزيارة بالإطمئنان على فؤاد، وقد أقنعهم أن قرار اعتزاله الجامعة هو قرار اتخذه بارادته المحضة لكي يكمل الدراسة بإيطاليا بعدها. حتى يجنب أيّ شخص الأذى بسببه فهو يعرف تهور تلك المجموعات المتطرفة، ولن يكون سعيداً بإيّ احتقان يكون هو وراءه ولو بطريقة غير مباشرة يمكن أن يتأذى فيها أحدهم، فلو كان هناك ثمن يجب دفعه فمن الأحسن أن يدفعه هو على أن يجر معه آخرين.

أستطيع أن أعيش كما أريد
قلبي نبعٌ من المشاعر
لا أعرف أرضاً تحتويه

بين السّطور أستطيع أن أكون أنا
أن أحب كما أريد

تعتقد أن واقعك أكبر قيمةً؟
سطوري تخلت من الظّلم
ليس بها مقابر الأطفال، وجيوب سارقي الأيتام

تتشدّق بالواقع، وجلدك مثقّب باللقاحات
إحمِ نفسك واحتط من قريبك

بين كلماتي لا أخشى خيانةً
بين الأحرف زرعت حباً
أفرح، أبكي، أتعزّى
لديّ كلّ ما أحتاجه
ورقتي صادقةٌ، بيضاءُ، مكحّلةٌ

**أضأتُ كلَّ ركنٍ مظلمٍ**
**أعيش من دون حياةٍ مزدوجةٍ**
**ما أفكر به سأعلنه**
**ما أرغبه سأفعله**
**ليس أصبعك من تدير الكرة**
**ممتلكاتك نهايتها في أروقة المحكمة**

في انتظار بوادر انفراج لقبول التحاقه بأســرته، كان على فؤاد العمل لكي يشغل وقته حتى لا يكون عالة ويكسب المزيد من الاستقلالية.

رحلــة بحثــه توقفت به في أحد الكباريهات الســاحلية فــي مدينة الدار البيضاء المعروف باسم أربعة وثمانين، حيث ابتدأ عمله بالمطبخ، يقوم بمهام شاقة لا نهاية لها، سرعان ما اندمج في عالم البنات والطباخ الرئيس اللبناني، فكان يلقبه بفوفو بسبب استلطافه له. جوزيف الطباخ أعجب بتفاني فؤاد في العمل، فبدأ يســتلطفه أكثر ويقدره بسبب إخلاصه وتفانيه. فيفضفض له بين الفينــة والأخرى بعضاً من قصصه الكثيــرة والطريفة عن عمله في دول عربية عديدة وتبوّئه مناصب المسؤوليات في فنادق عالمية كثيرة.

إنســجم فؤاد وســط بيئة عمل وتيرتها سريعة كســرعة القطار، يبدأها في الصباح الباكر وينهيها في منتصف الليل من دون معرفة ما يجري طوال الليل في قاعة الكباريه سوى ما يصل من موسيقى، وما يخرج ويدخل من الصحون، لكن فضوله لم يكن في أحســن أحواله بغض النظر عن تشــجيع الجميع له بتفقــد الصالة إذا أراد ذلــك. الفتيات كنَّ يحبن فؤاداً ومعجبات بوســامته، يتأسفن أنه لا يحب البنات، فنسج علاقة ثقة بهنّ في بيئة التحرش فيها مباحاً، بــل إنهن يفقدن نصف احترامهن بمجرد أن يعــرف الناس بعملهن بالكباريه، لذلك فمعظم البنات يخفين ذلك عن محيطهن.

اليــوم على غير العادة، اقتحم زائر غير مألوف جلبة المطعم، فانخفضت الأصوات مع دخوله، وصار الجميع يقوم بعمله كأنه لا يعرف زميله.

فؤاد وسط التوتر الذي أصابه بالعدوى، راح يسأل زميلته الأمازغية مريم، ـ

لم أفهم تكلمي بصوت مرتفع لأسمعك ـ فأجابته مريم: ـ أُسكت أيها الأحمق.

– جوزيـــف أين أنت، إجلبوه لي ـ صار يصرخ، في الوقت الذي يتفحصه فؤاد خلسة، ذلك الشخص الأصلع بأذنين كبيرتين وقامة قصيرة، عليه عنوان الهيبة، وملابس الميســـورين. علامات كانت تكفي لتجعل فؤاداً يخمن شـــبه متأكد من يكون. ـ إنه رب العمل هل هذا صحيح؟ ـ يســـأل مريم، فتجيبه من دون تفكير: إنه (أمك) لا تكلمني.

كان مستغرباً من هذه الهالة التي يحيطه بها العاملون المتبلّدون، كأنه من يمطر الغيث ويطعم عصافير السماء.

دخل جوزيف مهرولاً وهو يمســـح يده، ـ ما خطبكم ـ يسأل المنادين إلى أن لمح الزائر، فاستقبله كصديق:

– يوم عظيم، أستاذ عاصم

– أتعبوني، الحمير، كيف الأمور معك

– جيدة كما ترى، ما خطبك

– نادل في القاعة، تلاســـن مع أحد زبائني المهمين، إضافة إلى ذلك هو مسؤول في المراقبة الصحية، تخيل يا جوزيف تخيل.

– وهل أصلح الوضع

– نعـــم، لـــو لم أكن حينها، لبدأت المشـــكلات تنهال علي من دون أن أعرف سببها. الكلب، تخيل تلاسن مع الزبائن، ما هذا الجيل المستهتر، في بداياتنا لم نكن نستطيع أن نرفع رؤوسنا حتى في وجود ساعي البريد.

– الأوقات تتغير يا صديقي، هدئ من أعصابك، هل أجلب لك كأسا؟

– لا تكن سخيفاً تعرف أنني توقفت

– أتكلم على الماء

– أتظن الوقت مناسباً للنُكت

– غير مناسب لأعرفك بفؤاد فقط

– من يكون؟

– أحد مستخدميك، أظنه يصلح للعمل في القاعة، اختبرته بما يكفي، إضافة إلى أنه ليس ثرثاراً، هناك تفصيل واحد.

– ما هو؟

– هو مثلي

– ليس مثلك يا صديقي، في هذه النقطة لن أصدقك

– أضحكتني، لقد عجزت، لم أرك يوماً تسيء الفهم

– عليك اللعنة فهمت، لا يهمني ما يفعل بمقعدته ما دام أنه يعمل كما يجب. آتني به فوراً.

نده جوزيف فؤاداً، ففزع عند سماع صوته، – هيا اذهب للتعرف إليه أيها الغبي، لقد ورطك فضولك – أجابته مريم.

شق طريقه بين المعدات ومسّاحات العمل المصنوعة من الألمنيوم، وسط ممرات المطبخ التي يحجب فيها الضباب الرؤية الطبيعية، ليجد السيد جوزيف ينتظره قرب المدخل، ـ المعلم، يريدك في مكتبه، حظ سعيد، ابني ـ كانت كلمات جوزيف وهو يربت على كتف فؤاد.

كان ذلك أول مرة يخرج فيها فؤاد إلى القاعة، بعد مدة من استعماله ممر العاملين، كان كلّ شيء جديد الوجوه والأضواء، وأناقة المكان والطاقم الذي

يختلف كلياً في مظهره عن عمال المطبخ. تكلف أحد المستخدمين بإرشاده إلى الممر المفضي إلى الإدارة.

بعدما وصل عبر ممرات عميقة وسلالم ضيقة إلى مكتب في مدخل الملحق الإداري للكباريه، توقف عند مكتب الاستقبال، حيث كانت فتاة شقراء تسر الناظر، لكنها بلا روح، طلبت من فؤاد التريث حتى تتحقق من طلبه بإجراء مكالمة سريعة لتطلب منه بعدها قصد أحد المكاتب في بداية المجمع.

تقصد نوح المكتب ليجد به مرأة سمراء اللون قوية البنية، تتكلم بالهاتف مع أحدهم، فأشارت له بالجلوس من دون التوقف عن الحديث عبر الهاتف.

بعد انتهاء المكالمة صرخت في وجهه: قف من أذنَ لك بالجلوس؟

– أنت سيدتي أشرت إلي بذلك!!

– أشرت إليك للدخول وليس الجلوس

– آسف من أجل سوء الفهم

– تعرف من أنا؟

– لم أتشرف

– أنا نادية، اليد اليمنى للسيد عاصم، صاحب الكباريه، وأنا المسؤولة الجديدة عنك.

– تشرفت سيدتي

– ستدخل للقاء المعلم، لا تقاطعه بالكلام، وأيّ شيء يطلبه عليك القيام به، وممنوع بتاتاً مناقشة أوامره.

– حسن

صرخت بعدها على فتاة الاستقبال التي تشبه دمية من دون روح: ـ أدخليه للقاء السيد عاصم.

بعد صعود سـلالم أُخَر توقفا عند مكتب مقفل بباب خشبي كبير، مراقب بكامرة، بعد طرق خفيف من قبل الفتاة، وتنصتها بتركيز بالغ لسماع الجواب، إخترق صوت المجيب من الداخل ـ أدخل ـ.

فتحت الباب بعدها وفؤاد ككلب مطيع لا يبتعد عن ظهرها إلى أن أوقفته أمام مكتب السيد عاصم وانسحبت تعود أدراجها.

تجاهل عاصم فؤاداً مدة طويلة لينشـغل بإجراء اتصالاته العملية والتافهة منها، متفحصاً إيّاه بين الفينة والأخرى.

– أظنك تصلح للمهمة ـ كلم السـيد عاصم فؤاداً من دون أن يأخذ بالاً أن الكلام موجه إليه، وسط السيل الهائل من المكالمات.

– فؤاد أصحيح هذا؟

– آسف ظننت الكلام موجهاً إلى شخص آخر

– ما هو مستواك الدراسي

– السنة الثانية جامعي، لم أكمل بعدها

– والسبب

– عائلي، سيدي

– لا عليـك الحياة كلّها دراسـة، أنا مثـلاً غير متعلـم، تعلمت تعليماً خصوصياً عندما حققت الثروة، تستطيع إكمال جامعتك في وقت لاحق

– إن شاء الله

– هل تعرف سبب وجودك هنا؟

– لا سيدي

– سوف ننقلك إلى مكان العمل في الصالة كنادل، أعرف أنك لا تفهم الكثير، لكن في الحياة هناك أشياء تتعلمها، وأشياء أُخَر إما إن تكون موجودة عندك كشخص أو لا تكون بالمرة، وأنا هنا اخترتك من أجل تزكية جوزيف وما أخبرني عنك، فضلاً عن ذلك أعتقد أنه محق بعد أن قابلتك. العمل الجديد يتطلب منك حرصاً كبيراً فزبائني من النوع الحساس، هناك مسؤولون في الدولة في كلّ المجالات، منهم حتى القضاة، لذلك يتوجب الحرص في التعامل وأن تكون مخصياً من أذنك وعينيك. أظنك فهمت ما أقصد.

إضافة إلى ذلك فهي فرصة كبيرة لتنمية دخلك، فأنت ستحصل على راتبين، واحد من الكباريه وآخر من الزبائن كإكراميات والتي ممكن أن تصل إلى مبالغ خيالية، ولن أطلب منك اقتسامها مع أيّ أحد كما يفعل بعضهم، أو أن يحصل عليها الكباريه ويقسمها على الجميع، فلكلّ اختصاصه وامتيازاته وأنت وشطارتك، فضلاً عن ذلك فأنا أحب القيام بالأمور حسب القواعد القديمة. ماذا قلت؟

– سأكون عند حسن ظنك

– لا عليك في هذا الشأن، أنا متيقن من ذلك. بالنسبة إلى نادية التي التقيتها لا تهتم كثيراً لأمرها، هي كثيرة النباح، لكنها ضرر ضروري لي هنا. ستفهم مع الوقت. تستطيع الانصراف. مرّ عليها فهي المسؤولة المباشرة على الشؤون الداخلية.

عاد فؤاد للقاء نادية متحمساً للتجربة الجديدة التي هو مقبل عليها،

يملأ فكره الكثير من الأسـئلة، حتى يكون مستعداً لما ينتظره. مع توقفه أمام مكتبها، وجدها تنتظره، فطلبت منه أن يتبعها لتعرفه بعمله الجديد.

بعـد عبور نفس الممرات التي قدم منها، لكن هذه المرة مع الانتباه أكثر لتفاصيلهـا، فقد لمح لوحات بها تعليمات لم يرها قبلاً، ولون طلاء الجدران ورائحة المكان المميزة. إلى أن وجد نفسه من جديد أمام الصالة المضيئة التي تشـبه صالة القصور بثرياتها المتدلية كعناقيد العنب بعروش نحاسـية، وموائد غطيت بمفـارش بيض مطرزة بخيوط مذهبة، مع أطقم خدمة فضية، كلّ هذا محوط وسـط قالب من الجـدران المغطاة بورق حائط أصفر اللون تفترشـه رسـوم أشـجار وزهور باللون البني مع إطار خشـبي يعبر جدران القاعة نحو كلّ الاتجاهات. أما منصة العرض فقد اسـتقرت في نهاية القاعة حيث يمكن للحاضرين مشاهدتها أينما كانت سفرتهم.

في حين كان أعضاء فريـق العمل ببزة بيضاء موحدة، يعتكفون على أداء مهامهم بصرامة ودقة متناهية، لا يبتسـمون لبعضهم بعضاً، فالموقف الوحيد المسـموح فيه بالابتسـامة هو عندما يكونون في مواجـه الزبون. أحس فؤاد مـع كلّ ما يرى، كمن يغادر الطفولة نحو حياة كلّها مسـؤولية. الأوقات في المطبخ شـاقة لكنّها ممتعة تمثّل نسـبة عالية من الارتخاء غير أنها لا تأخذه إلى أيّ مكان، شـعور فهمه تماماً لأنها ليست المرة الأولى التي كان عليه أن يكبر فيها.

نادية التي تبقى علامة وجودها الوحيدة هو صوتها المرتفع، تنهال على كلّ مـن صادفته بالانتقادات إلى أن يكمد وجهـه، مبرزة عضلاتها أمام الملتحق

الجديد ليفهم جيداً من هو القائد في الكباريه. أمام ضعف إمكاناتها وشكلها تجد نفسها تقوم بحركات كلّها لها نفس المعنى "هل تعرفون من أكون". أما السيد عاصم فقد قبل بها بسبب أنها لن تجد فرصة لذلك المنصب في مكان آخر، إضافة إلى أجرتها المنخفضة قياساً إلى أقرانها المسيرين، إضافة إلى أنها تعفيه من المهام القذرة التي يخفيها عن ضميره.

– ستقضي أسبوعاً وراء منضدة المشروبات حتى تحفظ جيداً نظام المكان وكلّ ما نقدمه إلى الزبائن. أكدت عائشة.

فؤاد سعيد بفضول يسأل الساقي على كلّ كبيرة وصغيرة ويدون في مذكرته معجباً بالأجواء والأضواء التي تبعث على الارتياح، الساقي بجسمه الكبير يرجع كلّ قارورة إلى مكانها بعد أن يريها لفؤاد متعاوناً معه وهو يقول: لا أفعل هذا عادةً مع الجدد لكن جوزيف أخبرني أنك صديقه ونحن هنا نحب جوزيفاً، إنه يدعمنا جميعاً أمام السيد عاصم عندما نطلب منه التدخل في مشكلة، فالسيد عاصم يثق به كثيراً وأنت محظوظ بصديق مثله، خصوصاً وأنت مثلي لن يريد أحد أن يقرن إسمه بك لأنك مشبوه أيّها اللطيف.

إجتمعن العاملات حول المنضدة للترحيب بفؤاد متقدمة إحداهن: ـ مرحبا بصديق جوزيف، لقد أوصانا بك، تستطيع أن تعتمد علينا جميعنا، لكن لا تثق بالساقي كثيراً لأنه ينكح كلّ شيء حتى الحيوان ـ فانطلق الجميع بالضحك، لتؤكد له أخرى: نعم يكفي أن تتوفر على ثقب في مكان ما، ها ها ها.

فتعالت القهقهات التي أكملت سعادة فؤاد وبددت مخلفات القلق من مهمته الجديدة.

إندمج فؤاد سريعاً في باقي الفريق، بين مهامه والزبائن وصراخ نادية بسبب وبلا سبب. أصبح الزبائن الراضون بجودة تعامله يجلسون في الرقعة التي يخدمها، حتى لاحظ هذا السيد عاصم وزادت غبطته، في حين أن غيرة نادية تحتدم لأنّها تريد أن تبقى مفضلته الوحيدة في الكباريه. لكن فصل فؤاد ليس في مصلحتها بسبب أنه يجنبها الكثير من المتاعب التي لن تربح من ورائها شيئاً، فأصبحت تتعامل معه على أساس أنه مشكلة من مشكلات الحياة التي لا مفر منها.

أبرز طاولة كانت في الكباريه هي طاولة العدالة كما يسميها باقي المستخدمين، يجلس حولها قضاة ومحامون ومسؤولون بالمحكمة يستغلون مواقع بعضهم لتأليف شبكة مصالح. ولحساسية تلك الطاولة فقد أوكل مهام خدمتها السيد عاصم إلى فؤاد، فالثمالة تجعل الجميع في حالة من الارتخاء يمكن أن يتفوه أحد ما بأشياء لن يريدها أن تصل إلى مسامع العالم. هذا لا يعني أنهم في المحاكم لا يعرفون القاضي الشريف والفاسد، لكن حتى العواهر لا يحبذن لفت الانتباه، إضافة إلى أنهن يتجنبن ترك دليل يدينهن كمناورة في حدود سلطاتهن وحيز الحركة التي تمنحها فجوات المساطر. فالنزاهة التي نحصل عليها بقوة الردع أقل نجاعة وجدوى من التي تكون عن إقتناع ومبدأ، فالنزاهة تكون فعالة ومستقلة في ذاتها. وفي الحقيقة لا يمكننا الحصول عليها من دون زرع بذورها منذ الطفولة حتى نحصل على محصول كاف، عوض انتظار ما ستجود به الأشجار البرية التي لن تلبي الاحتياج الحقيقي أبداً، فلا يمكننا تعيين المخبر مع كلّ موظف حكومي يراقبه طوال الوقت.

عندما يكون هناك ملف رشوة جديد، فإن المحامي يشير إلى القاضي في الأمسية لأنه ثمّة حاجة لسلطته التقديرية، حيث يجري استعمال جمل مشفرة قابلة لعدة تأويلات.

وسط كلّ ما يحدث كان فؤاد لا يبالي بأي شيء، وبسبب خبرته القليلة في الحياة لم يكن ليخمن ما يدور بين السطور.

بينما تمضي الليلة بحلاوتها، إذ فتح أحد القضاة موضوع فؤاد وقال لهم: تعرفون أن فؤاداً شاذّ جنسياً؟ فجاوبه أحد الحضور: وأنت شاذ أخلاقياً ها ها ها. فردّ أحد الوكلاء، أنه من علامات الكساد العظيم في مجتمعنا حتى صرنا ننشغل بنادل. فقال أحد المحامين: قال (أبو نواس) أبياتاً: من يكن يعشق النساء فإني مولع القلب بالغلام الظريف. فأجابه زميله: ما أروعها من أبيات، فقد ألهمتني أن أنكحك.

فرد المحامي صاحب الأبيات: لا تفعلها حتى مع نفسك، فأنا بالكاد أستطيع التغوط بسهولة.

وتحولت الطاولة إلى الصخب والضحك، وأضاف أحدهم: اللواط موضوع قديم قدم البشرية وباقي الخليقة. لم تستطع لا القوانين ولا العقوبات الحد منه، فنحن لن نجعل قطاً يزأر ولو هددناه بالحرق، أنظروا مثلاً نحن على رغم من كلّ ما يمكن أن يصيبنا من وراء ما نفعل، فنحن نتحمّل المخاطرة من أجل المال، ولم تستطع القوانين ردعنا أمام قوّة إغراء المال، فما بالك بأشخاص وجدوا أنفسهم بهوية وميول متناقض مع شكلهم الخارجي.

فردّ آخر: معك حق، المجتمع غير عادل ويحكم بظاهر الأمور، هناك من هم أحق بالتنمّر من هؤلاء المساكين ضحايا خلل الطبيعة.

أضاف أحد المحامين: أتخيلهم يمارسون علاقتهم برائحة الغائط.

فــرد الوكيل: ونحن نمارس أيضاً برائحة البول، المشــكلة أبعد من ذلك، أظننــي أراك مهزوزاً في رجولتك، ها ها هــا. فأنا متيقن من أنك لن تتردد إذا طلبت منك صديقتك مضاجعتها من الدبر.

فقاطعهم أحد المحامين: نعم ســمعت أنها أصبحت موضة حتى تحافظ البنت على عذريتها للزواج.

– لا حتى للمتعة، من فينا لم يرغب في تجربتها ولو مرة مع فتاة، علينا الاعتراف أن المخيال الجنســي لا نهاية له. ولولاها لما أفتى علماء دين كثيرون بعدم جواز نكاح الدبر، فإذاً هناك فكرة تساور أغلبية المجتمع.

أمــا القاضي الذي كان فكره مشــغولاً بالقوانين فعرض إشــكالية أخرى: لنفرض جدلاً أننا نقبل بهم، كيف سندمجهم في مدونة الأسرة؟

رد أحــد المحامين: أنــت تقصد مدونة العمل الأســرية، لأنني لا أعدها مدونة أســرة متوازنــة، بل مجرد قانون يعطي كلّ الحقــوق للمرأة. يخول لها الحصــول على نفقة حتى وهي تشــتغل، بل حتى لــو كان مدخولها أكبر من مدخول الرجل. ويعطيهــا الحق في قبول حضانة الأطفال أو رفضها من دون التزامــات، وإنهاء العلاقة الزوجية أيضاً وقتما شــاءت، في المقابل نجد أنها تفرض على الرجل قيوداً وتعويضات للزوجة على الســنوات التي نكحها فيها بدعوى أنه اســتمتع بهــا، في حال قرر الطلاق منها هــذا من دون أن نأخذ بعين الاعتبار المهر والهدايا التي يفرضها العرف. عدا نفقة الأولاد التي تقدر بمزاجية بعيداً عن مســطرة واضحة لحســابها. أين في نظرك المســاواة بين

الجنسين هنا أو العدالة؟ وتريدنا بعد هذا، سن قوانين للمثليين؟ ونحن لم ننصف حتى الرجل. حقوق المرأة خدعة كبيرة لتكريس العنصرية الجنسية، علينا أن نعامل الجنسين من دون تفرقة تحت مسمى حقوق الانسان والطفل.

– جاوبه القاضي: إنها حيلة ناجحة لخلق حالة العزوف عن الزواج والإنجاب، وخلق مجتمع منقسم بين مكوناته، لأن الغربيين أنفسهم يكرسون المساواة بتقاسم الأعباء والمسؤوليات مناصفة واقتسام الأرباح طوال مدة الزواج، إنه تكريس لزواج يصبح الاثنين واحداً، وليس مثل مجتمعاتنا تتحول المرأة فيه فقط لمخلوق انتهازي تريد الرجل أن يقوم بالتزاماته المادية مجبراً في حين هي تتصرف على هواها بذريعة أن القوامة للرجل، النساء يلعبن بين الوتر الديني والمدني كما يحلو لهن. وسط مشهد سكيزوفريني بامتياز.

أضاف في أثناء الحوار المستعل أحد الكتاب بالمحكمة: المثليون لهم حرية أكبر منا نحن المغايرون على سبيل المثال يمكنهم أخذ غرفة في الفندق من دون عقد زواج، وهذا ممنوع كما تعرفون علينا ما عدا الأجانب.

– أنا شخصياً لن أبيت معك في غرفة واحدة، ها ها ها ـ أجاب أحدهم.

وأضاف الكاتب نفسه: ويعطون أيضاً الحق في اللجوء السياسي، عندما يكونون من دول متشددة.

– أضاف أحد المحاميين: فكرة جميلة للحصول على اللجوء

– فأجابه زميله ساخراً: يجب عليك أن تثبت ذلك بتوسعة دبرك، ها ها ها

عندما لحق فؤاد بمائدة العدالة وفي يده زجاجة النبيذ، صاروا يسألونه بسخرية، عمن هو أكثر وسامة فيهم، فأجابهم فؤاد بابتسامة الفتاة: ما تعطونه لي من بقشيش. فاستسلم الجميع للضحك.

فـــي تلك الأثناء كان لفؤاد زبائن في مكان آخـــر من القاعة، منهم زبون جديد يرتاد الكباريه مند شـــهر، أســـمر اللون، جنوبي اللهجة، ضخم الجثة، ســـخي ولطيف المعاملة، كان ينفق في كلّ ليلة (عشـــرة آلآف درهم) عدا ما ينقد على المومســـات والندل والموسيقيين، لكن هذه الليلة على غير عادته، لم يدفع ثمن طلبيتـــه الأولى، وكان العرف يقضي بدفع آخر طلبية حتى تلبى لك الطلبية الجديدة، قال الجنوبي لفؤاد إنه لا يملك فلســـاً، وإنه سيدفع في الليلة القادمة.

فاتصل فؤاد بنادية حتى يحصل على إذن لتغطية استهلاك زبونه، فأكدت لـــه أنها ســـتنظر في طلبه، فلم تمـــض دقائق حتى وقفـــت مجموعة من أمن الكباريـــه تطلـــب أداء ما في ذمته فوراً مـــن دون مماطله، فانفضت من حوله مجموعة المومســـات من بائعات الابتســـامة الصفراء، حتى قبل أن يفهم ما يجري له، وبينما يحاول أن يشرح لهم أن هناك خطأً ما، إذ قاموا بسحله من مقعده وسط الحضور إلى أن تقدم نحوهم فؤاد مسرعاً: ماذا تفعلون؟

– إنها تعليمات نادية، عليه الدفع أو سنكرمه.

– أُتركوا السيد، سأدفع بدلاً عنه

– أنت تعرف القانون يا فؤاد عليك أن تهتم بشؤونك

فأكملوا سحله إلى الخارج، وصفعه أحد رجال الحمايات على وجهه فنظر بذهـــول إلى فؤاد وعينه امتلأت بالدموع، فلم يســـتطع فؤاد تحمّل المشـــهد فانهار باكياً وفصل الجنوبي عنهم مشكّلاً بجسده درعا له، وهو يقول لهم إنه عليهم ضربه في الأول.

تدخــل فؤاد بتلك الطريقــة جعلتهم يتوقفون عن ضــرب الجنوبي، لكنّ واحداً من المجموعة دفعه لينصرف، فسقط وارتطم رأسه في حافة الممر، من دون أن يتحرك من جديد، تاركاً الجميع في ذهول مما يقع.

بعد أن حضــرت نادية لمكان الحادث ومشــاهدتها لمحــاولات إيقاظ الجنوبي التي باءت كلّها بالفشــل، طلبت الاتصال بالوقاية المدنية لإسعافه، ثم طلبت من فريق الأمن أن يتبعها إلى مكتبها. بعد مشــاورات رجع الجميع إلى مكان الحادث في انتظار ســيارة الإســعاف التي قدمت بسرعة على غير عادتها بســبب أنواع الزبائن في الكباريه، والتي يمكــن أن تضم حتى القائد العام للوقاية المدنية، والتي جاءت في رفقتها سيارة شرطة. مجرد ضجة كانت تكفي لاستدراج الزبائن الفضوليين.

توقفت ســيارة الشرطة بجانب سيارة الإســعاف، ونزل محققان بملابس رســمية من فــوق وملابس نوم من تحــت، واحد قصير والآخــر أقصر منه، يأخذان أقوال الحضور في ما حدث، في غياب أيّ تصريح للجنوبي الذي لا يظهر أنه سيتكلم من جديد.

بعد أخذ أقوال الجميــع، وبينما كان فؤاد يبكي على الرصيف، إذ توقف عنده المحققان وقال القصير جداً: ســيكون لك ما يكفي من الوقت لتبكي، بل لن تجد شيئاً تفعله للإثارة.

– ماذا تقصد؟ – علّق فؤاد دهشاً

– هيا معنا سنشرح لك وتشرح لنا. كان جواب الشرطي الأطول.

في طريقه إلى الســيارة مصفد اليدين، إلتفــت إلى نادية وباقي الحمايات

مع الحشـــد الذي تشكّل من المســـتخدمين والزبائن، كان فؤاد يوجه كلماته لنادية ويقول لها: سيدة نادية هناك خطأ ما أخبري الشرطيين من فضلك. بينما هي شـــاحت بوجهها كأنّها لا تعرفه إذ ألقى فؤاد نظراته الأخيرة على الحشد، حيث تتحرك سيارة الشرطة بعيداً، وجهتها المخفر، في الوقت الذي قال فيه المحقـــق القصير جداً بتهكم: تركت الفـــراش بجانب زوجتي لكي أجول في المدينة ليلاً مع مثلي. فانفجر رفيقه بالضحك ورد عليه: أنت مسلٍ حتى وأنت غاضـــب، أظنّ أن زوجتك محظوظة بك. ـ عليك أن تخبرها بذلك بنفســـك، فهي تعتقد أنها تسرعت بالزواج بي –.

– الظاهر أن عضوك الصغير هو السبب ها ها ها

– هل تريد أن تختبره أيها التافه؟

– ضيفنا سيكون مهتماً أزيد مني، ها ها ها

بعد وصولهم إلى المخفر أنزلا فؤاداً، مجتازين ثلاثتهم المدخل تلو الآخر، عابريـــن مكاتب فقيرة التأثيث تبعث على القلق، كأن المكان أعد لكي يجعل الجميع فيه غير مرتاح.

جلس فؤاد في أحد المقاعد بجوار مكتب توســـطه المحقق القصير جداً وبدأ يوجه أسئلته إلى فؤاد في حضور زميله:

– هيا أخبرنا كلّ شيء، نريد الرجوع إلى بيوتنا مبكراً.

فبدأ فؤاد باستجماع أنفاسه سارداً الأحداث إلى أن وصلت الأمور إلى من طرح الجنوبي أرضاً وفقده للوعي.

– قصة مثيرة، أقنعتني شـــخصياً بكذبتك، لحسن الحظ إنّ هناك شهوداً عليك، حتى المسيرة واحدة منهم، وكلّهم سيأتون صباحاً للتوقيع على إفاداتهم في المحاضر الرسمية.

– هذا هراء

– لحســـن حظك أنه هناك شـــهود عليك وإلّا كان تعاملنا مختلفاً، فنحن نعرف جيداً كيف نحصل على الإعترافات.

– لن أتفوه بشيء من دون حضور محام

– ها ها ها، عندما تقتل أحداً في أمريكا، تستطيع أن تطلبه من شرطتهم، هنا الأمور تجري بطريقتنا، أظن أن صديقنا الجديد مولع بالأفلام.

– هـــا ها ها، ما زالت تضحكني هذه الجملة كلما تفوه بها أحد هنا. أكد المحقق الأطول، وأضاف موجهاً كلامـــه لفؤاد: هنا يتدخل المحامي للدفاع عنك بعد أن نكمل عملنا.

فـــي هذه الأثناء كان الســـيد عاصم مجتمعاً في مكتبـــه بجوزيف ونادية والحمايات، وقال أمام الجميع لنادية: تســـرعتم بالإتصال بالشـــرطة من دون التنســـيق قبل ذلك، أنت تعرفين أنه لا توجد كاميرا للتسجيل إلّا أمام مكتبي، فكلّ ما نقول ســـيصدقونه في غياب أيّ دليل أو شـــاهد، كان يمكن شرح الموضوع للشرطة على أنه حادث عرضي وقع وحده، وبعدها نطمس الموضوع بطريقتنـــا. لقد حذرتك مراراً من هذا الأســـلوب فـــي التعامل، ما كان عليكم سحله أمام الجميع. ما زلت غير مصدق أنّ فؤاداً من دفعه.

– أجابت نادية: تســـتطيع أن تسأل الحمايات، هذا ما حدث فعلاً، لماذا

نورط أنفسنا بتضليل الشرطة من أجل نادل، أنا مصرة بحسن تصرفي. أنتم تثقون كثيراً بذلك اللوطي، في هذا الزمن لا يمكننا الوثوق حتى بأقاربنا.

سكت الجميع بعدها، وأضاف السيد عاصم الذي يريد أن يظهر بمظهر الشخص الذي لا يتخلى عن مستخدميه: سأتصل غداً بقائد الشرطة وأطلب منه معاملة فؤاد معاملة تفضيلية وسيتكفل محامي الشخصي الدفاع عنه.

بعد أن فشل المحققون في الحصول على اعترافات سهلة، أودعوه سجن المخفر بسبب نوع الجريمة التي يتابع من أجلها، في انتظار اكتمال ملفه لتقديمه إلى المدعي العام حتى يقرر هل يتابع عملية إطلاقه أم يودع السجن طوال مدة المحاكمة.

كانت ليلة من دون نهاية لفؤاد، تذكّر فيها نعيمة وحميداً، والأيام التي كان فيها كلّ شيء ورديا بنكهة الأحلام.

في نهاية اليوم الثاني، قرر المدعي العام متابعته في حالة اعتقاله بسبب عدم استقرار حالة الجنوبي الذي يعاني غيبوبة لا يستطيع الأطباء تخمين مدتها، إضافة إلى أنهم اكتشفوا أنه من عائلة متنفذة جداً في الجنوب، صار من الصعب معاملة فؤاد بأيّ شكل من أشكال المعاملة التفضيلية.

أول أيام فؤاد في السجن المركزي، كانت في غرفة يتكدس فيها جمع غفير من القادمين الجدد، بعد تفتيشهم يودعون بها أياماً قليلة، قبل دمجهم في الغرف مع باقي السجناء. قضاها فؤاد صامتاً غير مستوعب لما يحدث معه.

لكن سكوته لم يمنع في تنقل الأخبار حوله، فالسجن مجتمع مستقل، تحكمه أعرافه وقوانينه، وله توازناته الخاصة وكما الحال مع العصابات الإجرامية، التي تتعامل معها الدولة كشر لا بدّ منه مفضلة بقاء الجماعات

المخترقة والمعروفة من قبلها على نشوء جماعات جديدة بين الفينة والأخرى يصعب التنبؤ بتحركاتها. وبذلك تحافظ لها على أعين بين المســـاجين مقابل امتيازات وغض النظـــر عن بعض الخروقات، هذا من دون أن نأخذ بالإعتبار المتواطئين في تلك النشـــاطات من الحراس والإداريين في السجن. فالفساد كالمـــرض لا يخلو منه أيّ مجتمع ولكن فقـــط تتغير حدّته مع توفر الأرضية لازدهاره.

يعبر فؤاد بين ردهات السجن مصفد اليدين مع حارسه الذي يفتح الباب تلو الآخر، حتى وصلا إلى الجناح الخاص بنوع الجرائم التي تشـــبه ما يتابع من أجله فؤاد، والتي تعد أخطرها.

سلم الحارس فؤاداً إلى رئيس الغرفة وانصرف، قفلت بعدها الغرفة، بباب حديدي كبير، يظهر المعدن الصدئ من تحت طلائه، مثل رئيس الزنزانة التي تبرز عظام جمجمته من تحت بشـــرة وجهه، ينظر إلى فؤاد بنظرات لم يتعامل مع مثلها في كلّ حياته، مع إحســـاس بوجوده في قفص حيوانات مفترســـة مع غياب أيّ إمكانية لإنقاذه. كأن العالم تخلى عنه إلى الأبد في مواجهة مصيره في عالم البقاء فيه فقط للأقوى.

– أنا الرئيس هنا، وكلّ ما آمرك به ينفذ من فوره إذا أردت قضاء عقوبتك في ســـلام، سريرك هو المكان الشاغر هناك، أنا أبقى كلّ شيء إلّا قواداً، أيّ ممارســـة اللواطة في زنزانتي سوف أثقب مؤخرتك بسكين، يكفيني الشبهات التي ستتبعنا جميعاً، سنصير مسخرة السجن كلّه.

تســـمر فؤاد فـــي مكانه مدة طويلة لا يكلّم أحـــداً، متخلياً عن وجبته من

الطعام لسائر رفاق الزنزانة، ـ لا تنتظر أن يتحايل عليك أحد لتأكل، نحن لسنا أمك، بل أجمل شيء يمكن أن يحدث هو أن تموت جوعاً.

ناقص مثلي ـ قال رئيس الزنزانة.

مضت أيام لم تكف ليتأقلم فؤاد في محيطه الجديد وسط المعتقلين، يتجنب النظر إلى أيّ واحد منهم، في زنزانة مكتظة بنافذة صغيرة للرئيس وحده حق نشر ملابسه بها، مع رائحة الأحشاء الكريهة تنبعث من مرحاض مكشوف في أحد الجنبات.

صوت يتكرّر ينتبه له في آخر المطاف – أتكلم معك أيها المثلي – استدار فؤاد ليجده من أحد الأسرة المجاورة.

– ما هي جريمتك؟ – يسأل شاب ضعيف البنية لونه غير مستقر بين السمرة والبياض ووجه يشبه شكل البلوط.

– لم أرتكب شيئاً، لفّقوا لي تهمة دفع أحدهم سقط في غيبوبة

– كلّنا مثلك حتى الرئيس أمامك مظلوم ـ فبدأ الجميع بالضحك –

– إنها حقيقة ما قلته لك

– لا أحد يريد أن يعرف الحقيقة، إذا كان محضر الشرطة يدينك فلن يخرجك القاضي حتى لو آمن ببراءتك. الكلّ يلقي بالمسؤولية على الآخر في ما يلحق بالمظلومين. المال وحده يمكن أن ينقذك. فالمحكمة تشبه بناية عالية بممرات طوارئ عديدة للفرار، إذا كنت مستعداً للدفع، فاعرف أشخاصاً يمكن أن تحصل على البراءة.

– كم يكلّف المبلغ؟

– عشرون مليون

– من أين لي بمبلغ كهذا

– أهلك

– أهلي لم أتواصل معهم منذ زمن، يحاولون نسياني وأنا أتجنب تذكيرهم بي.

– الكرة في ملعبك، صديقي

مفاتيح الزنزانة تستدير في وقت خارج المواعيد، الحارس ينادي على فؤاد ويأخذه معه وسط استغراب الجميع، لتنتهي به الجولة في مكتب مدير السجن الذي يستقبله بحفاوة لم يتعودها منذ اعتقاله بعد أن سمح له بالجلوس وجّه كلامه:

– أنت مستغرب أصحيح ذلك. المهم حتى لا أطيل حيرتك، إتصل بي صديقي السيد عاصم، وأوصاني عليك، أنت محظوظ جداً بمعرفتك به.

– إنه ربّ عملي

– إسمع يا بني، أو ربما تحب أن أناديك بنيتي، ها ها ها،ـ عدل المدير نظاراته وأكمل ـ السجن صعب على أمثالك، للأسف لا يكفي أن نحس أننا نعني شيئاً حتى يأخذه العالم بعين الإعتبار في تعامله معنا. فللمجتمع أيضاً نظرته الخاصة للأمور في غياب فهمه الحقيقة، والكثيرون يخلطون بين المثلية والشذوذ الجنسي المرضي الذي يكون الأطفال ضحية له.

ولكنني متفهم لهذه الأشياء وسأعطي تعليماتي لكي تشمل بحصانة خاصة، ومن الأحسن أن ألحقك بخدمة أحد النزلاء الخاصين حتى تستفيد من امتيازاتها كالأكل الجيد وغيره من الرفاهيات وفي الوقت نفسه تشغل نفسك بأشخاص من الطبقة الرفيعة. ما رأيك؟

– سأفعل كلّ ما تراه مناسباً سيدي المدير

– تستطيع الرجوع إلى زنزانتك إذاً

الأخبـــار الجديدة وصلت إلى الزنزانة قبل رجوعه إليها، جعلت من رئيس الزنزانة، يســـتقبله كما يســـتقبل إبنته عائدة من المدرســـة بابتســـامة محطمة الأســـنان، جعلت فمه كلوحة للسان معتقل وراء قضبان. أفرج معها عن غطاء إضافي لسرير فؤاد ليوجّه تعليماته بكلّ وضوح لكلّ المسجونين:

ـ الســـيد فؤاد من اليوم هو ضيفنا من جهة الســـيد المدير، الرجل الرائع الذي يســـهر على راحتنا، حتى نقضي عقوبتنا بهدوء. سأحطم حتماً رأس أيّ شخص يزعج ضيفنا الجديد..

أول مرة مند بداية اعتقاله، يحس فؤاد بالراحة في سريره، همس إليه زميلة

ـ صرت من العائلة الملكية ها ها ها، هل تحكي لي؟ ـ

لكـــنّ فؤاداً فطـــن أنه من مصلحتـــه المحافظة على حالـــة الغموض بين السجناء.

يجـــري اليوم نقل فؤاد إلى المحكمة، مع الصباح الباكر، يتمكن من رؤية شوارع مدينة الدار البيضاء التي اشتاق إليها أزيد من أيّ شيء آخر في الحياة. بعد وصوله مع مجموعة من المســـجونين توافقَ تاريخ جلســـته مع جلساتهم، جلســـوا بالتتابع حســـب رقم ملف كلّ واحد منهم. لا يكلم أحدهم الآخر بسبب التوتر والترقب الذي غلب على كلّ مشاعرهم المتبقية.

نادى المنادي على فؤاد باســـمه ليدخل إلـــى القاعة، يوضع مقابلة منصة عالية مصفد اليدين، يتقدّم إليه رجل بكرش كبيرة يشبه الغراب بسترته السوداء:

ـ مرحبا فؤاد، معك الأستاذ متوكل المحامي الذي سينوب عنك

– لكنك لم تأتِ لكي نتفق وأنا في السجن

**– لا حاجة إلى ذلك كلّ شيء في المحاضر**

**بعــد تعريف المحامي لنفســه رجــع إلى مقعده قرب زملائــه، كلّ ينتظر المنــاداة برقم قضيتــه. أما فؤاد فيتمعن في لوحة جديدة يشــاهدها أول مرة في حياته، مرســومة بالحقيقة الحاضرة، محورها رئيس الجلســة بجوار كومة ملفات ترتفع إلى ســماء القاعة، يجلس على يمينه ويساره رجل ومرأة باللباس نفسه، وشــخص رابع يدون كلّ ما يحدث في المحاكمة. يتحوّل معها مصير الناس إلى مجرد أرقام، تمر فيها الجلســات بسرعة البرق، يكون فيها المتهم ضعيفــاً، يمكن أن يتحول الاعتراض على أيّ إجــراء إلى عقوبة إضافية على خلاف المحامي الذي يكون محمياً بهيأة محامين ينضوي تحتها، تجعله قادراً على التلاسن مع رئيس الجلسة وخلق البلبلة حتى تستجاب مطالبه في إجراء معيــن يدخل في حق الدفاع، بل تجعله محصناً حتى في حياته الخاصة، حال كلّ التجمعات المهنية. نعطي مثلاً هنا الطبيب الذي لا يحرّر تقريراً عن خطأ طبي اقترفه زميل آخر لــه بالمهنة وهكذا يوفرون لبعضهم بعضاً الحصانة من أيّــة متابعة على ما يقترفونه. وبعدها يلقــون باللوم على الدولة في خلل الكّل مشارك في صناعته.**

**فــور انتهاء الفريق القضائي من ترتيب أمــره، طلب الرئيس من المحامين المترافعيــن في قضية فــؤاد التقدم أمام المنصة، ليقدمــوا دفاعاتهم. بعد أن تبادل المحامون المذكرات، إنتهت الجلســة بتحديــد التاريخ القادم لها من أجل الاســتماع إلى الشــهود من دون مرافعات تذكر من غير ســؤال الرئيس لفؤاد عن تم تمسّكه بأقواله، وعودته إلى قاعة الاعتقال في انتظار انتهاء باقي المحاكمات ليعودوا به إلى الســجن، مع إحساس بألم في رقبته لطول المدة**

التي قضاها رافعاً رأسه إلى منصة القضاة التي لم يجد ما يسوّغ تعليتها بذلك الشكل المبالغ فيها. كأنّ علوَّ منصات الأخشاب قدم إضافة إلى تبصّر القضاء.

إنتهى المطاف بفؤاد في خدمة رجل متنفذ، متابع بملفات فساد، يقارب عمره الثمانين، لا يكاد يتفرغ من الصلاة، يتصرف بخمول في أيّ عمل يبدر منه، لم يكن يحب وجود فؤاد في زنزانته، ويعد ذلك مكيدة من الدولة لتشويه سمعته وإلصاق شبهة الشذوذ باسمه. أما فؤاد فقد تعود رفقته أزيد من زملائه في الزنزانة، يحب ترتيب أغراضه، معوضاً نقص الأبوة التي خلفتها هجرة حميد وهو طفل.

– هل تمارس القذارة مع أحد في السجن؟ ـ سأل فجأة الرجل العجوز فؤاد الذي إحتاج بدوره مدة لمغادرة شروده الذي نسي خلاله وجود العجوز الغامض.

– ظننت أن الناس في عمرك لا يهتمون إلى الأخبار المثيرة

– في الأقل أعرف بما تلطخ سمعتي في الخارج

– أمي ربتني كفتاة صالحة، لا تمارس هذه الأشياء إلّا في إطار الزواج، ولمّا كان الزواج غير ممكن ففي الحب أيضاً الشيء نفسه.

– مثلي بروح الدعابة، وماذا بعد، لطفك يا الله. قل لي، الجميع يسرقني، أتعمد دائماً إهمال أشياء لأستمتع برؤيتهم كيف يحاولون تطبيق حيلهم لإخفائها إلّا أنت، ممل للغاية وأنت تأتيني بها.

– السبب هو أنني فهمت أن السرقة شيء خاطئ بسبب ما تعيشه

– ها ها ها يا لك من مثلي قذر

– يجب أن تسأل لمَ الشمس تشرق من المغرب، وليس وهي تشرق من

مكانها في الشـــرق، الجديرون بســـؤالك هم من يسرقونك، التعود لن يجعل الخطأ صواباً أبداً.

– معك حق على رغم من أنني ضحية تصفية حســـابات، إلّا أنه لا أنكر أنني تبعت الطريق الخطأ، وأنا ســـعيد من أجل هذه الفرصة التي ســـمحت لي بلقاء نفسي بعد سنوات من القطيعة.

– سعيد من أجلك سيدي، هل عندك أسرة؟

– في هذا أيضاً أجني ما زرعت، لنكتفي بهذا سيدي المثلي.

مضـــت أيام ليســـت بالطويلة كانـــت تكفي لخلق ألفة قويـــة بين العجوز والمثلـــي كما أحبب أن يناديه، جعل كليهما يعوض ما ينقصه في رفقة الآخر. فطلب المعتقل الخاص أن ينقل فؤاداً ليقيم معه بصورة دائمة، وقد اســـتجاب المدير إلى طلبه، فالمعتقلون الخاصون فيهم من يتمتع بســـلطة أكبر من وزير العدل نفسه.

العاشـــرة صباحاً، يوم جميـــل بخليط من المطر والغيـــوم كما يحبه فؤاد، يحضر القهوة بالأعشـــاب. يعكر صفوة الأجواء قفل باب الزنزانة الذي يعيده إلى واقع يحاول أن يبقى عنه بعيداً.

– فؤاد، أجمع أغراضك سوف تخرج ـ قال الحارس.

– لم أفهم أتقصد أن أجهز نفسي للمحكمة؟

– ستخرج قلت لك، لا تزعجني بأسالتك أنا أنفّذ القرارات كما تعرف.

إظلمّـــت الزنزانة في عين العجوز وهو يعـــي أن تحولاً ما حدث لمصلحة فؤاد، غير قادر على الفرح بســـبب تعلقه الغريب بابنه الذي ولدته له الزنزانة

مثلياً. لكنه متمرس في إخفاء مشـــاعره وراء شخصية رجل السلطة الحديدي الذي سيلعبها إلى الآخر.

– هيا حتى لا تضيع فرصة ثانية في الحياة، أنت تســتحقها، إســمع كلام الحارس لا تتأخر.

جمع فؤاد أغراضه بســرعة ولبس ملابســه وعانــق العجوز، لا يعرف هل يفــرح بخروجه أم أنه يبكي على فراقه، ترتطم أمــواج كبيرة من العواطف في أحشاء فؤاد. فتجعله يعتصر وسط الأحداث العبثية.

إنتشــر الخبر كالعادة في كلّ الجناح، فهتف رفاق فؤاد القدامى بوداعه، كما فعل مدير الســجن بنفسه وهو يقول ســتفهم كلّ شيء خارجاً أفضل أن تعيش المفاجأة، أتمنى لك حظاً سعيداً.

فتحت بوابة الســجن الرئيســية، خرج فؤاد يتنفس هــواء لم يكن مألوفاً كالسابق. يلمح في المخرج الســيدين "عاصم وجوزيف" والشخص الثالث الذي لم يكن ســوى الجنوبي الذي ارتمــى أول المعانقين لفؤاد في حين أن الأخير يسأل:

– لم تمت؟

– أبناء الدار البيضاء وحدهم من يموتون عند ســقوطهم أرضاً، ها ها ها، حسن حظك صديقي.

– أول مرة أعرف أن لي حظاً أنا الآخر.

بعد تفحصه الجميع، طلب منهم الســيد عاصم ركوب السيارة للتحدث في مكان آخر غير بوابة السجن التي كانت تخلق في نفسه عدم الارتياح كأن البوابة والنوافذ تنظر إليه متوعدة بسوء طالع ينتظره.

إنطلقت السيارة إلى مقهى الشمس على شاطئ الدار البيضاء، أحس فؤاد بأجواء البحر مجتراً ما تيسر من مشاهد الطفولة مع نعيمة وسمير، – ليتنا لم نكبر – تفوه فؤاد بين الخيال والواقع.

– الحمايات في السجن مع نادية، أضيفت تهمة الشهادة بالزور وتضليل العدالــة إلى قائمة الاتهامات التي عليهــم الوقوف أمام المحكمة من أجلها. أنا أتحمل المســؤولية في ما يحدث، كان علــيّ كبح جماح الغولة منذ مدة طويلة، لكــن الجانب المفيد من عملها كان يجعلني متقاعســاً حيال الأمر، المهم تســتطيع أن تعود إلى عملك وقتما تشاء، الكلّ يسأل عنك، لقد فرح الجميع بخبر براءتك ـ قال السيد عاصم.

بينمــا الجنوبي أمســك بذراع فــؤاد، إذ قال: لقد تصرفــت معي كرجل جنوبي حقيقي أخي فؤاد، المثليون الحقيقيون هم من اعتدوا علي تلك الليلة وقبلــوا أن يتحمل آخر بــريء خطأهم، إضافة إلى ذلك أنني كنت ســأوفي بديني الليلة الموالية، فمع بداية الســهرة التقيت مرأة وطفلها المريض. صوت بداخلي أرجعني لهما بعد أن تجاوزتهما بمسافة، تفحصت الوثائق بحوزتهما، وتشــخيصي كطبيب أكد لي أن الطفل فعلاً كان مريضاً بالســرطان ولم تكن مجرد متســولة مدعية. فسلمتها ما في جيبي لتتمكن من شراء الدواء، ضارباً لها موعداً لكي أرى في أمرها. ـ لم أكن أعرف أنك طبيب ـ قال فؤاد وســط كلام الجنوبي.

– لكنني ســعيد بما جرى أخي فؤاد، فقد تعلّمت درساً من دروس الحياة وفرصة جديدة أغيّر خلالها مســار حياتي، من فضلك أخي فؤاد إحتفظ بهذا المبلغ ربما تحتاجه.

– أشكراً لك هذا يا دكتور، لكنني أحتفظ بما يكفي من المال جانباً

– تستطيع أن تسميني حميداً، المهم أترك لك رقمي، تستطيع دائماً الاعتماد علي.

– إسمك مثل اسم والدي، دكتور حميد.

تدخل جوزيف بالحوار، وقال: إسمعني جيداً، لا أخفي عليك أنني أحسست بالمسؤولية في ما حدث، فلو لم أتدخل لنقلك من المطبخ لما عرّضت لكلّ هذا. ـ لا أحد يعرف الغيب، المطبخ ليس محصناً هو الآخر من لعبة الأقدار، إذا فكرنا هكذا سنكون سلبيين طوال الوقت، المهم هي الدوافع النبيلة ـ قاطعه فؤاد.

معك حق إبني، المهم لك كامل الحرية أن تعود إلى العمل كما قال لك السيد عاصم، وهذه بطاقة أحد أصدقائي الذي يمسك محل عطور مشهور، سيكون محظوظاً بعملك معه، أنت لك كامل الحرية أن تفعل ما ترتاح له.

– شكراً سوف أفكر في الموضوع جيداً.

مضى اللقاء بتعزية كبيرة لفؤاد الذي لم يحس بنفسه محوطا كذلك اليوم، غير مستوعبٍ لكلّ ما يجري حوله، كان شارداً بين الفينة والأخرى، متذكراً العجوز ومدير السجن والقاضي، منتصبة أمامه الملفات نحو السماء مخاطباً نفسه، إنّها الحياة نفسها بتعدد وجوهها، هل نحن حقاً من نعيشها أم هي التي تعيشنا انطلاقاً من قصصنا. ماذا لو لم نكن، ما نفع كلّ هذا الكون الذي يشبه قاعة سينما من دون عرض. نحن مدفوعون بغريزتنا التي تبرمجنا على لعب دور نعرف أنه لا نهاية سعيدة له، وكأننا محصورون بين قوسين من الزمن.

نحاول أن نصنع لكلّ شيء معنى، يمنطق العبثية، ولمّا كان منظور الأشياء لا يفي بالغرض، فقد لجأنا إلى مخيلتنا حتى نبني بالسراب

نهاية سـعيدة تحقّق المعنى لحياتنا التي تشبه عملية البناء المتكرّرة فوق الرمل بعد كلّ موجة، أم يا ترى نحن نشارك في حقيقة لا نعرف أبعاد أهدافها. ربما هدف هذا الكون الذكي سـوف ينكشف للأجناس القادمة من أحفادنا. ربما أحفادنا لن يكونوا بلحم ودم مثلما نتصوّر، من يدري، ربما نتحد كلّنا في ذكاء لا حدود لقدرته.

لا أصدّق، باب المقبرة على حاله!
لم يقم أحد بتجديد طلائه

الأشجار في سلامٍ بعيداً عن المصفف
الزهور حكيمةٌ، تعيش طويلاً بوقار

إشتقت إليكِ

بين القبور يصيبني عمى الألوان
أمس التقيتك في إحدى الذكريات
إجتمعنا مطولاً، وخطّطنا معاً

تباً للسياسة والحروب
إشتقت إلى الخلاف معك
كنت سأصرخ في وجه خيالك
تعرفين الخارج موحشٌ من دونك
يتحاربون كالعادة، والأسعار تغلي
الشباب إلى الاسوأ
الجيران غير لبقين
المواصلات أكثر سوءاً
يحكمنا الكثير من التّافهين

هل ما زلت تعانين جفاف البشرة؟
ما زلت أذكر تقصّف شعرك الأخير
بحثت عن علاج له، لم أتقدّم كثيراً

طلبت مني أن أنسى عنوان قبرك
تعرفين لا أستطيع،
أحسّ بالوحدة
أطرافي باردة كأطرافك
هنا لا شيء معقّد.. هنا أراكِ جيداً

إلتقيت صديقتك
ولدت أطفالاً كثرين

تحمل أوزاناً أكبر
لم تكن جميلةً

أنت رقدتي الفاتنة
فكرة سيّئة الإحتفاظ بمعطفك
لا أمنع نفسي عن التفكير في حالته

أكملت كتب مكتبتك
لم تعجبني كتب النفس الكثيرة
غير مفيدة.. لم تفهميني يوماً

أبكي دائماً أمام الصّفحات
أَتْرُكِ الوحيد بين الوريقات
أستطيع شمّ رائحة يدك
أمرّر الأوراق فوق خدي
أوهم نفسي بدفئك

أعطي نفسي الحق في استعمال شرائطك
صرت أحب أكثر ما تسمعين
دائماً كنتِ بالنسبة إليّ معقّدةً

متاهة أضعت قلبي فيها
أحببتك كالطّلاسم معتّقةً

لم يكن أحد يعتني بي
لا أحد يهتم هل أنا بخير
فكرة سيئة تغادرين وحدك

إسمعي صوت الرّيح، إنها تمطر
الجو باردٌ، رائحة التّربة
قبرك فاضت فوقه بحيرات
أرى وجهي الآن

تمنيت قضاء ليلةٍ قربك
لن أزعج القبور من حولك

لم أزر أهلك
لا أحد فيهم يشبهك

تباً للموت الذي هزم رباطنا
يتشمّت بي لأنه وحيدٌ

أتصدّق بملابسك؟!
لم أطعك يوماً والآن لن أطيعك
سوف تبقى خزانتك مملوءة
حتى إذا تأخرتِ، آتي إلى هنا أتفقدك

شـــهر لم يغادر فيه فؤاد غرفته ســـوى للتبضع، يقضي يومه في مشـــاهدة الأفلام والنوم ثم النوم. يســـتمع إلى أغانيه بيـــن الفينة والأخرى، خص إثنين بحبه، واحدة مغنيتها فرنسية تدعى ميلين فارمر تقول أبياتها:

**أنتظر لحظة، لماذا أنا لست فتى؟**
**نظراً لأن عليك الاختيار،**
**كلمات ناعمة أستطيع أن أقولها**
**من دون تزوير**
**أنا صبي**
**ولي إمبراطورية،**
**لا أريد خلع ملابسي**
**منذ ذلك الحين من دون تزييف،**
**أنا صبي**
**كل وحدة في خزانة ملابسي**
**عيون محاطة بدائرة سوداء**
**خلف الأبواب المغلقة**
**أتحدى الفرصة**
**في هذا العالم الذي لا ذيل ولا رأس له**
**أنا أفعل ما أريد**
**منديل في جوف البنطال**
**أنا فارس إيون**
**نظراً لأن عليك الاختيار،**
**كلمات ناعمة أستطيع أن أقولها**
**من دون تزوير**

أنا صبي
ولي إمبراطورية،
لا أريد خلع ملابسي
منذ ذلك الحين من دون تزييف،
أنا صبي
في المقابل، يطاردونني بعيداً عن جمعياتكم
لا أعترف أن قراراتي مهددة
لا يهمني ما نقوله
أنا حرباء
إحذروا جنودي من الصفيح
هم الذين سيقتلونكم
نظراً لأن عليك الاختيار،
كلمات ناعمة أستطيع أن أقولها
من دون تزوير
أنا صبي
ولي إمبراطورية،
لا أريد خلع ملابسي
منذ ذلك الحين من دون تزييف،
أنا صبي
نظراً لأن عليك الاختيار،

كلمات ناعمة أستطيع أن أقولها
من دون تزوير
أنا صبي
ولي إمبراطورية،
لا أريد خلع ملابسي
منذ ذلك الحين من دون تزييف،
أنا صبي.

أما الأخرى فكانت للمغني الأمريكي بروس سبرينغستين تقول:

كنت مرضوضاً ومهشماً
ولم أستطع أن أعرف بماذا كنت أشعر
كنت غير معروف لنفسي
رأيت انعكاسي على نافذة
لم أتعرف إلى وجهي
آهٍ هل تتركني أترنح
على شوارع فيلادلفيا

سرت على الجادة حتى تحجّرت ساقاي
سمعت أصوات الأصدقاء تلاشت واختفت

كان باستطاعتي سماع الدم في عروقي في الليل
كسواد الليل يهمس كالمطر
على شوارع فيلادلفيا

ما من ملاك سيحييني
إنه أنت وأنا فقط يا صديقي
وثيابي لم تكن تسعني مطلقاً
سرت آلاف الأميال فقط لأتخلص من هذا العبء

حلّ الليل، أنا مستلق ويقظ
أستطيع أن أشعر بنفسي أتلاشى
فلتستقبلني يا أخي بقبلتك الكافرة
أو هل نترك بعضنا وحيدين هكذا
على شوارع فيلادلفيا.

كانــت فكرة بيع العطر مســتحبة يومــاً بعد يوم، بعيداً عــن عمل الليل والمومســات والســكارى، بعيداً أيضاً عن المال الذي لــم يكن أبرز ما في الحياة كما كان الجميع يتكلّم.

الحيــاة مثل نســبة مئوية كاملة، تكون ســعيدة إذا توازنت بها الوحدات، فتســعون بالمائة كلّها مال لن تصنع حياة وحدهــا في غياب الفكر والصحة والرفقة الجيدة...إلخ.

أبجديــات تعلّمها فؤاد من تجربته الأخيرة. بعد تردد وســط خمول تعوّده وفوبيا إجتماعية تثقــل خطواته برغبة في التأجيل لا نهاية لها. ظلّ مختبئاً في ساعات نوم بلا أحلام، حمل سماعة الهاتف وركب الرقم، رن مرتين، أراد فؤاد الإقفــال ليقنع ضميره أنه عمل ما يســتوجب تأجيله، حتى يربح يوماً إضافياً.

– ألــو، مرحبا – كانت كلمات من الجهة المقابلة أنهت معها أحلام التردّد. قابلها فؤاد بصمت في حين تكرر الجملة.

– مرحبا، معك فؤاد، أعطاني رقمك السيد جوزيف

– أهلاً، انتظرت اتصالك، هل قرّرت العمل معنا؟

– سأكون سعيداً بالعمل معكم

– حســنٌ تفضّل العنوان ، ســوف أنتظرك غداً في الصباح في متجر عطر الزهور قبالة البرجين التوأمين.

– دونته، شكراً

– إلى الغد إذاً

– إن شاء الله.

إحتضن الأرق فؤاداً في ليلة طويلة من دون أنيس، متشوقاً فيها إلى صباح يوم جديد تكون فيه بداية اســترجاع حياته وحماسة أحلامها. ظلّ ممدّداً على جانبه ينظر إلى سماء ليلة مقمرة، من نافذته المقابلة، متخيلاً ضوء القمر نفسه أنيســه العجوز رفيق زنزانته، الذي وعد نفســه بزيارته بعد أن تستقر أوضاعه. فؤاد الذي عادة يتحمس مع كلّ حكم الليل بأذن مقتنعة، صار متحرّراً من كلّ عاهاته النفســية التي تشــترك معه في كلّ قراراته، ما يلبث أن يتراجع متقوقعاً على نفســه في صباح اليوم الثاني. صدقت الحكمة حين قالت أن الليل يأتي بالمشورة. لكن النهار له رأي خاص به هو الآخر.

صباح تعلّله نسيم بارد، ذلك اليوم الذي سيزور فيه أول مرة متجر العطور، في الصباح الباكر مفضلاً عدم استعمال أيّة وسيلة للتنقل، إستغلها فؤاد فرصة للمشــي بين شــوارع المدينة التي قاطعها مدة طويلة، يتشــاركها مع مهرولين كثيرين، يختلفون في لباسهم ودرجة أناقتهم، ولكنهم يتفقون جميعاً في تجهم يوحد وجوها غادرتها الســعادة منذ زمن طويل. ركب موجة المشاة شارداً في أفكاره وتأملاته حتى وصل إلى العنوان من دون الاستعانة بأحد.

بعد أن تخطّى عتبة المدخل الزجاجي إســتقبلته فتاة جميلة كقارورة عطر ثمينة بابتســامة مهنية بلا روح، ـ إســمي فؤاد، لدي موعد مع الســيد كنزي ـ قال فؤاد بعد تحية الســيدة، فأجابت: إنه ينتظرك، مكتبه في الطابق العلوي، السلالم في هذا الاتجاه.

– أهلاً بالسيد فؤاد ـ بادر السيد في الطابق العلوي عندما اقترب منه فؤاد وأكمل: إســمي كنزي، أنا صاحب المحل وجوزيف مشارك لكنه لا يحب أن يعرف أحد بذلك.

– مفاجأة جميلة أحب العمل مع جوزيف

– هنا لن تعمل سوى مع نفسك، فجوزيف شريك في الأرباح فقط، وأنت ستكون المدير، نحن سعداء بوجود شخص نثق به. لا تقلق، العمل هنا سهل، ومثلما لكلّ منا شخصية وإسم، فكذلك قارورات العطر، لديك ما يكفي من الوقت للتعرف إليهن وضبط قائمة أسمائهن. ونورة البائعة في الأسفل ستشرح لك كل ما تريد معرفته. تستطيع البدء في الوقت الذي تحدده، أنت صديقنا.

لم يلبث فؤاد أن بدأ عمله حتى ذهب إلى زيارة العجوز في سجنه، ولكن صار عوضاً عن إدخاله قاعة الزيارات فأخذوه إلى مكتب المدير، الذي نهض من مكتبه ليستقبله بابتسامة متحسرة.

– مرحبا، أسعدتني رؤيتك

– وأنا أسعد سيدي المدير

– البركة في حياتك، متأسف أن أعلمك بوفاة الجنرال الباروكي

– لا أعرف أحداً بهذا الاسم أظن هناك خطأ

– لم يتشارك معك هويته إذاً. حسنٌ. السجين الخاص الذي أرفقتك بخدمته كان واحداً من رجال السلطة المعروفين في الحقبة السابقة، ومسرحيات السياسة التي لا تنتهي، تلعب بعض مشاهدها هنا أيضاً فلا ضرورة أن نتعمق كثيراً.

فؤاد نفسه ليس مستعداً للتعمق في أيّ شيء بعد، كان عاجزاً عن لملمة دموعه التي تنزف كنهر من أرض الحزن. يحس بخناجر الوحدة تدق في قلبه الذي كان يفرح عندما يتخيل لقاءه العجوز.

– كن رجلاً في الأقل، إنها سنة الحياة، الفراق أمر محتوم.

أنهى المدير كلامه وقدم شيكاً أخرجه من الدرج وأكمل:

– لقــد ترك لك الجنرال هذا الشــيك، وطلب مني أن أخبرك أنه أعجب بمكان عملك الجديد.

– شيك؟ عملي الجديد؟

– الجنرال يستطيع مغادرة الســجن والرجوع وقتما شاء، أظن أنه اطمئن عليك من بعيد من دون أن تلمحه. أنت وهو تشتركان في كونكما منبوذين من المجتمع والأســرة. فالجنرال منذ الحكم عليه بالسجن لم يأت أولاده لزيارته لسبب أجهله، لكني أقدر أن أجزم أنهم لم يقبلوا بوالدهم الذي تحول لمجرد ســجين. أتعرف فؤاد عندمــا نعرف أموراً كثيرة عن الحيــاة، نفقد الرغبة في الخوض في تفاصيلها التي تفقد أهميتها لتتحول إلى مجرد عبث وسخافات.

– معك حق ســيدي، يمكنك أن تحتفظ بمبلغ الشــيك للسجن، أنا لا أحتاج إليه، اشــترِ للســجناء معدات للرياضة والترفيه. أحتاج أن أغادر هذا المكان، سعدت برؤيتك.

خرج فؤاد تاركاً وراءه المدير ممســكاً بالشيك وفاقداً الوعي وسط شرود سيمفوني بعزف لا ينقطع.

لا تَسْأَلِينِي عَنْ اسْمِي... لَا تَسْأَلِينِي
أنَا أسْكُنْ هُنَاكَ... حَيْثُ لَا عَنَاوِينَ
لَا تَقْتَرِبِي مِنِّي... لَدَيَّ حَسَاسِيَةُ الِانْسَانِ
لَا تَتْبعِينِي.. سَأَتُوهُ عَنْكِ بَيْنَ الْأَوْهَامِ
لَيْسَتْ لَدَيَّ صُورَةٌ... لَا يَتَذَكَّرُنِي الزَّمَانُ
لَا تُكَلِّمِينِي... لَا اجِيدُ الْكَلَامَ

صمْتِي لَا يَنْتَهِي سَوْفَ تَضْجّرِين
سَوْفَ تَحْتَرِقِين لَوْ حَضَنْتِنِي
سَوْفَ تَفْقِدِين كُلَّ شَيْءٍ يَوْمَ تُحِبِّين
أنَا حِمَمٌ فَوْقَ بُرْكَانٍ، أغْرَقْتُ كُلَّ مَنْ أيْقَظَنِي

سَوْفَ أغَادِرُ هُنَا قَرِيباً
وأهْجُرْ هُنَاكَ سَعِيداً

قَدَرِي نَصَحَنِي بِالْوَحْدَةِ
حَاجَتِي لأمٍ وأنْتِ طِفْلَة

حِصَانٌ جَامِحٌ
لَنْ تُسْرِجِينِي، سَوْفَ أطْرَحُكِ

أسْحَلُكِ بَيْنَ الَأوْطَانِ
أكْمِلِي رِحْلَتَكِ فَوْقَ عَرَبَةٍ
أنَا ابْنُ حَيَاةٍ مُضْطَرِبَةٍ

أحْتَسِي الْقَهْوَة مَعَ الْغُرَبَاءِ
مَعَ مُتَمَلِّقِينَ سُعَدَاء

أميـــر العطر، هكذا أصبح الزبائن يحبون نعت فؤاد، في تنقلاته الرشـــيقة بين القوارير يداعب واجهاتهن ببشـــرة أنامله، مستشعراً الروائح بكلّ مشاعره، شعاره "عطرك هويتك، لا تسمح للعالم أن يشم شيئاً آخر غيرك".

دخلت زبونـــة إلى المحل، مـــا إن إلتقت نظراتها نظرات فـــؤاد، إخترقه إحســـاس غريب أنه يعرفها. تجول بين العطور وتحـــاول اختبار روائحها، في حين هو يشله مانع عاطفي، بعنوان أين أعرفها

تأخّر كثيراً في الالتحاق بها على غير عادته مع الزبائن، مفضلاً النظر إليها من بعيد، على تخطي رهاب بدأ يتســـلل من بين دقات قلبه لا يرى له ســـبباً. لأنّ فؤاد يناقش مشاعره دائماً كقاعدة عقلانية يؤمن بها، "لا يكفي أن تحس الشيء لتجعل له معنى".

– أيمكن أن أســـاعدك ـ قال فؤاد بعد أن تحدّى رهابه. السيدة تجيبه من دون النظر إليه منشغلة بما تحمل الرفوف من قوارير: لا أشكر لك هذا.

– حسنٌ لو احتجت أي شيء لا تترددي.

بينمـــا يعود إدراجه منتصراً علـــى رهبته التي أرادت أن تفرض قانونها على إرادته، إذ سمع صوتاً من خلفه: ما نوع العطر الذي تستعمله؟

إلتفت فؤاد إلى مصدر الصوت ليجد الســـيدة انتصبت وبين يديها قوارير لأنـــواع مختلفة من العطـــور، تنظر إليه بعينين خضراويـــن وقامة منتصبة، كلّ معالم الأنوثة تختفي وراء لباس رياضي وقصة شـــعر رجولية. ليجيبها: عفواً لم أفهم الغاية من سؤالك؟

– حسنٌ ولأنك مهنيّ في العطور، فسيكون اختيارك لعطرك الخاص موفقاً.

– ليـــس بالضروري، لا تنســـي المثل الذي يقول البحر يأخذ الســـباحين

الماهرين. ولكن يمكنني مساعدتك لاختيار ما تحبين أو ما يمكن أن يحبه الموجه له العطر.

– إنه من أجلي

– إذاً عليك بادئ بدء تغيير الدائرة، فالمكان المخصص لعطر النساء يوجد في النصف الآخر من المحل بجوار العطور المخصصة للأطفال.

– أظنّ لم أسألك عن مكان عطور النساء

– أيضاً العطر الذي أستعمل يوجد في ذلك الإتجاه، كما ترين كنت محقاً عندما قلت لك أنه ليس بالضرورة أن يكون ذوقي الخاص مساعداً في اختيار موفق.

حدّقت الفتاة إلى فؤاد محلّلة ما يحدث، وسط عرض خلطت فيه الطبيعة بالخطأ الأدوار بين هويتين متناقضتين، فتاة تستعمل عطر الرجل ورجل يستعمل عطر النساء.. قالت: إذاً، ما العطر الذي تحب رائحته على الرجال. فأجاب فؤاد: العطر الذي يضعه الرجل الذي سيعجبني مهما كان نوع العطر، سأحبه بكلّ تأكيد.

– أأنت مثلي؟.. عفواً لم يكن يجب أن أسأل لأنه ليس من شأني.

– أنت تعرضين الأسئلة كالمغايرين، كان يجب أن تكون الأمور معك مختلفة، كأن تسألينني إن كنت فتاة وأنا أسألك إن كنت رجلاً.

– نعم أنا كذلك، أقصد أنني رجل.

– سررت بالتعرف إليك، إسمي فؤاد.

– أنا صابرين، أنا الأســعد. حســنٌ أظنّ أنه عليّ الرحيــل في رفقة هذه القارورة، أظنها تفي بالغرض.

– إختيار موفق، الكثيرون يشترونها، سأعطيك الزجاجات الصغيرة الخاصة بالإختبار، للتعرف إلى بعضها.

– حسنٌ شكراً.

وســط توتر يحــاول جاهداً كلّ من صابرين وفــؤاد إخفاءه، بكم لا متناه من الحركات الرســمية التي يحاولان استعمالها ليثبت كلّ واحد إلى الآخر أن شيئاً استثنائياً لم يكن يحدث. لم يتنفسا الصعداء إلّا بعد أن غادرت صابرين بوابة المحل؛ ليعود بعدها فؤاد إلى مكتبه في الأعلى، ويرتمي بين أضلع مقعد مكتبه محاولاً إســتعادة هدوئه من جديد ليفهم ما يحدث له، لم يجد متنفساً قريباً سوى زميلته نورة التي لا يتبادل معها الحوارات عادة خارج نطاق العمل، فسألها:

– نورة هل لي بسؤال؟

– بالطبع ما خطبك

– عندما يخفق قلبك في لقاء شخص معين ماذا يعني هذا؟

– على حسب نوع الشخص الذي تجتمع معه أو الموقف، ربما لا يتعدى كونه إحساساً بالتوتر، وفي بعض الأحيان يكون علامة على الحب.

– أيمكن الوقوع في حب شخص تلتقينه أول مرّة

– ليس هناك مطر من دون مقبلات، بلا رعد أو ريح أو سماء ملبدة.

– تقصدين أن هناك بدايات لكلّ شيء

– نعم، هي هكذا، أعتقد، ولا يمكننا أن نفصل شيئاً عن بدايته

– أشكر لك هذا

– العفو، فؤاد.

صادف يوم لقاء صابرين آخر أيام الأسبوع التي يقضيها عادة فؤاد في أحد المطاعم وحيداً يتناول وجبة العشاء في وقت متأخر يتعمده فؤاد ليستمتع بهدوء المكان، وسماع القليل من إيقاعات الصحون وهي ترتطم بعضها ببعض في المطبخ وسط صمت كسره هذه المرة صوت صابرين الرجولي الحازم وما دار من حوار معها، وكلّ تلك التفاصيل التي احتفظ بها لنفسه حتى يعيد مشاهدتها في مخيلته من كلّ الزوايا كما يحلو له أن يعيشها ويحلّلها.

لم يستطع مشاهدة التلفزة بعيداً عن خيالات استطعمها، ففضّل ارتداء ملابسه النسائية المحببة التي لا يمكنه ارتداءها بعيداً عن غرفته، ثمّ استعمل عدة الزينة ليخرج الأنثى التي في داخله، محاولا طمس ما تبقى من ملامح فؤاد الرجولية.

مضى أسبوع يتأمل فيه فؤاد مع كلّ زبون يعبر نحو المحل آملاً رؤية صابرين، وسط شوق لم يعشه من قبل، يعيش لذة فرح طفولي كلّها في ذكرى صورتها بين جدران ذاكرته التي تلطّخت بكلّ ما هو مرتبط بها. لكن خطاب العقل ما يلبث أن يخرجه من هلوساته، فحتى لو كانت ستعود، لن يكون ذلك قبل أن تفرغ قارورة عطرها التي لن يكفي أسبوع أو شهر لإفراغها. لكنها لو انتظرت أن تفرغ قارورتها لتأتي فهذا يعني أنها لا تملك سبباً يدفعها إلى العودة إلا حبها للعطر، أما إذا عادت قبلاً فستكون مدفوعة بحب شيء آخر.

هكذا استمرت ملاحم فؤاد الفكرية وسط شرود الكل لاحظه، فقد تركيزه

وارتباطه بما يحدث حوله مند مدة، غير مهتم بما يدور في فلكه.

بعد مرور أسبوعين في صباح أحد الأيام التي لا يأتي فيها عادة الزبائن، رنّ الجرس المرتبط بالباب يجلجله الزائرون كلّما عبروا. مجرد سماع فؤاد للرنة تكهرب قلبه برهاب نشف معه ريقه، رفع عينه نحو القادم الذي عرف كيانه قبل رؤيته، بقي مسمّراً في مكانه في حين كانت صابرين تقترب بإيقاعات ثابته، وعيناها تحدقان إلى فؤاد بنظرات متقطعة.

– مرحبا ببائع العطر

– مرحبا، سعيد برؤيتك

– وأنا كذلك، في الحقيقة أنا لست هنا من أجل شراء شيء ما، لكنني لم أتوقف عن التفكير في ما دار بيننا من حوار، وأتيت لأعرف هل يمكنني الاتصال بك لنرتب لقاءً خارج أيام العمل لنتحدث أكثر.

– بكلّ فرح ـ أجاب فؤاد وهو يحاول التحكم في توتره، لكنه كان جلياً في رعاش يده وهو يدون رقمه، إلى أن هدأت عندما أمسكت صابرين بيده من فوق، أحس معها فؤاد بتفهم واحتواء شخص قريب منه، يتقاسم معه كلّ ما يشعر به.

مضى الأسبوع وفؤاد يحضر أول موعد في حياته، مستعيناً بنورة كمرشدة عاطفية له، أول مرة يفتقد فيها فؤاد أمه نعيمة، فالفتاة في داخله في أمس الحاجة إلى أمها وسط هذه المستجدات العاطفية الهامة.

وصلت صبيحة الأحد، سبقتها ليلة لم يعرف فؤاد كيف ينام فيها. مع وصوله إلى الساحة حيث اتفق مع صابرين على اللقاء، استقبلته بباقة ورد

حمراء اللون، وتوجها بعدها الى أحد المقاهي على الرصيف البحري، يتكلّمان كشخصين جمعتهما صداقة قبل قرن من الزمن، واجتمعا من جديد بعد فراق دام عقداً ونيف، حدث في هذا اللقاء أن باح فؤاد إلى صابرين بأنوثته بكلّ تفاصيلها متشاركاً كلّ ما عاناه ليكون فقط هو كما سلمت له نفسه من الطبيعة، في غياب أيّ تفهم أو عون حقيقي لما يعيشه، بينما صابرين تعبر معه من موضوع إلى آخر متقاسمة مشاعرها هي الأخرى كرجل يعيش في جسد مرأة. وكيف اكتشفت ميولها إلى الفتيات وهي مراهقة ووجدت نفسها تحب لمس خصوصياتهن وتقبيلهن بطريقة لا يشكون في أمرها، إلى أن انكشفت وصارت منبوذة من الجميع واضطرت بعدها إلى الهرب من أسرتها والعيش بعيداً عن المضايقات.

حواراتهما استمرت في أثناء الغداء أيضاً، ثم السينما التي هيأت جوها المظلم والانجذاب القوي الذي ثار كالبركان بين صابرين وفؤاد، جعلتهما من دون دفاعات، مستعدين ركوب أول موجة تمر من أمامهم للوصول إلى جسد كليهما، صابرين تأخذ المبادرة وتميل رأس فؤاد إلى فمها وتقبله بشغف متبادل، صارا يبتلعان كعطشانين لعاب بعضهما بعضاً بنهم الإبل، محترقين بلهيب الرغبة، تتلمس صابرين كلّ جزء من جسد فؤاد في حين هو الآخر في رحلة استكشاف كالمغترب العائد إلى وطنه، تنتهي رحلة كليهما ممسكين في جنس بعضهما إلى أن ارتويا بماء أطفأ حريقاً لم تكن في الحسبان ألسنتها.

نهاية اللقاء كانت في غرفة فؤاد في المدينة العتيقة، استمر العشيقان على ممارسة الحب حتى منتصف الليل.

حيث يسكن فؤاد، تمنع الأعراف العلاقات الحرة بين الجنسين وسط

المباني المخصصة لسكن العائلات، لكن ما يحدث بين فؤاد وصابرين جعل الحارة تعيش حالة من التخبط تلتئم على شـــرفها حلقات الحوار التي تشتعل طـــوال الوقت من دون طهي قرار على نارهـــا، فالجيران يفضلون عار العلاقة غير الشرعية مع صابرين على أن يشار إلى منزلهم كونه مسكناً لأحد المثليين، وهناك من يعد العلاقة مجرد صداقة تجمع فتاتين، وآخر متفائل يقول أن فؤاد شفي من مثليته وتخلص من لعنة لبسته سنوات.

في كلّ الأحوال لقد قبلوا مثلية فؤاد ســـنوات وتآلفوا معها، فهل يضايقونه لأنـــه في رفقة فتاة، فـــي وقت كان يمكنه أن يكون مع مثليّ آخر من دون أن يتمكنوا من تقديم شـــكاية بهم لأنه في غياب إثبات، فليس هناك قانون يمنع رجلاً من صحبة رجل آخر في منزله.

كلّما مر فؤاد وصابرين من أمام حشد مجتمع، يعم الصمت بينهم، يعوض بنظرات فضول تكاد تلتهم الحبيبين.

إنتظـــرت صابرين عيد ميلاد فؤاد، لتقـــدم له هديتها بينما يحتفلان بهدوء في المقهى المعتاد قرب الممر البحري، يســـتمتعان بلطافة الجو وبالموسيقى الهادئة ونغمة حبهم الداخلية التي تجعل كل شـــيء ساحراً، كلّما اجتمعوا في مكان واحد، يبدأ فؤاد في فتح هديته غير مصدق لما وجده في العلبة، تؤكده صابرين بابتســـامتها ونظـــرات عينيها الخضراوين اللتين تشـــبها لمعان الزمرد الشفاف، مع كلمات بصوتها الرجولي الثابت: هل تقبل الزواج بي؟

كلمات تكفي لتنهار دموع فؤاد مبللة خدوده في كلّ الاتجاهات، وأجاب: نعم. وارتما في حضن صابرين بعناق اســـتمر دقائق اختفى فيها العالم ليرتفع صوت القلوب.

كوكبي أزرق بلا ضفاف

هي الحياة مستلقية على ظهرها
نظراتي مسبار إلى العدم
تنهداتي أحزان مؤجلة

لا أبتسم... أنا أسخر
مزاجي زهرة مقفلة
أحلامي عقود متفرّعة
هدفي... أحاسيس مكبوتة

سياستي... النطح كالثور إلى الأعلى
قوتي...أحفر في الرمل
حبي، حب عذراء متزوجة
قدري، لا أدري
سِرْ معي أنا مثلك من دون وجهة
لن تصل، لكن قبرك سوف يكون قربي
إعزف معي فكلانا لا يجيد الرقص
تكلم فقط لا تغني، فعادةً لا أ صغي

سأحتقرك وأشفق عليك

سأضربك وأعانقك
إذا قلت لك أحبك، فأنا أحبك
أمسك بيدي، فسأتركك تسقط
سأتركك تسقط وأنت تدري
لن أغدر بك أبداً، لن أغدر بك

إذا أطلقت رصاصتك... أقتلني
لا تدعني أتجرع خيانتك
سأتحوّل إلى ذئب بشري
سأفترسك، نعم سأفترسك

لا تصدّق ملامحي
لا تصدق ربيعي فقط
سأعرّفك بعواصفي، تمسك جيداً

تاريخي أقدم من فرعون مصر
أجدادي من علّموا النّيل أين يسري
لم نقل على مدينتنا أم الدّنيا
فماضينا جنة

تعالى معي، لتفهم

**تمسك بيدي**

**نحن لا نحارب لنربح**
**شرفنا أزليّ**
**لم نرضَ بأقل من الإمبراطوريات خصماً**

**أنا وسأستعملها بفخر**
**أنا ابن العراق**
**شهادتي عريقة، لا تحتاج إلى أختام الأمم**

**قم للعراق وفِّهِ التبجيلا**
**واحترم أبناء المعلم... تقديرا**

**سكوتي أمامك، لأدعك تفهم**
**لا تكلم غير العاقل بما يعقل**

**نحن أبناء القدر**
**تسلمنا الرسائل قبل كلّ البشر**
**إذا كنت وصلت للفهم، فبيننا صنع القلم**

**حيث أنا، أنت لا تدري**
**أنا لا أبتسم... أنا أسخر**
**أنت بدأت بالقصة... أنا لم تكن تعنيني**
**فهمت أنها دائرية... لم أكن أريد السّير فيها**

**لست حيوان الرحى**
**لن تدور بغبائي**
**أفضل رصيف الشرف**
**فلا جديد تحت الشمس.**

# للتواصل مع الكاتب

**نبيل نوري لگزار موحان**

**Nabil NOURI LAGHZAR MOUHANE**

**مواقع التواصل الاجتماعي بالاسم الكامل للمؤلف**

نبيل نوري لگزار موحان

## هوموفوبيا

هكذا حياتنا كفقاعات تصعد نحو السماء وتعظم تجربتها وحجمها بالانصهار مع فقاعات أخرى ليحصل التبادل العجيب، لان حياة واحدة لا تكفي لاختبار وتعلم كل شيء. ولا ان تجعلنا كل شيء في آن واحد، إنها سنة التنوع والاختلاف التي تحكم الكون اجمع، والتي يتوجب احترامها كاحترام القوانين البشرية، فالإنسان مجبر على قبول الاختلاف والتنوع كقبوله لقوانين الفيزياء. التي تحدث خرابا إذا ما أصابها خطب. ليس كل الكواكب تشبه الأرض، ليس كل النجوم تشبه الشمس، او كل الأقمار كقمرنا، لا يمكن ان نقارن او نلغي الآخر، فالطبيعة المتحكمة هي من اوجدت هذا التنوع وهي وحدها من لها الحق في التعديل والحذف والإضافة.

الدراويش للنشر والترجمة
@dar_aldarawesh
@DarAldarawesh
Stadt Kaufbeuren
Germany
كاوفبويرن -ألمانيا